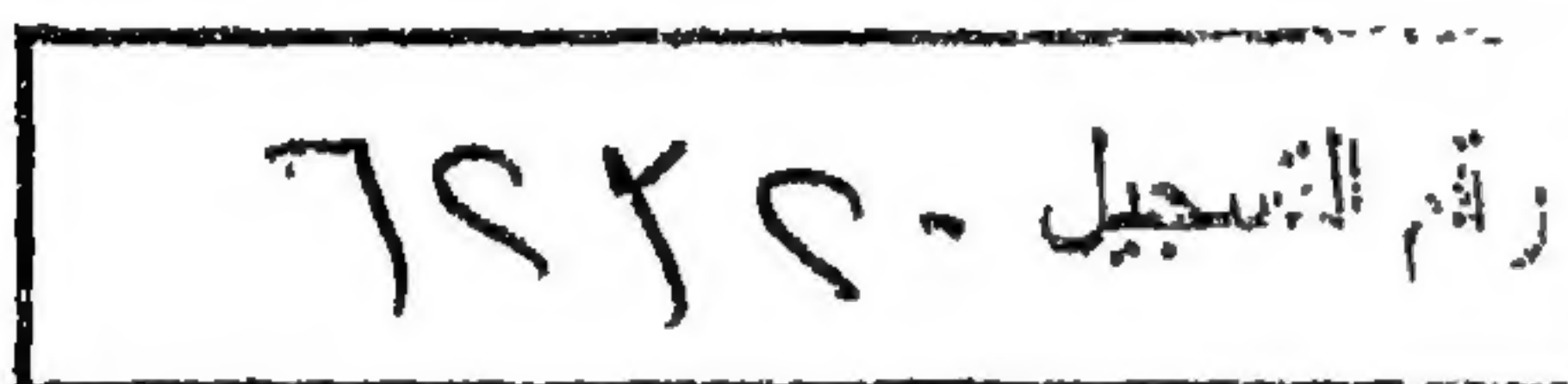
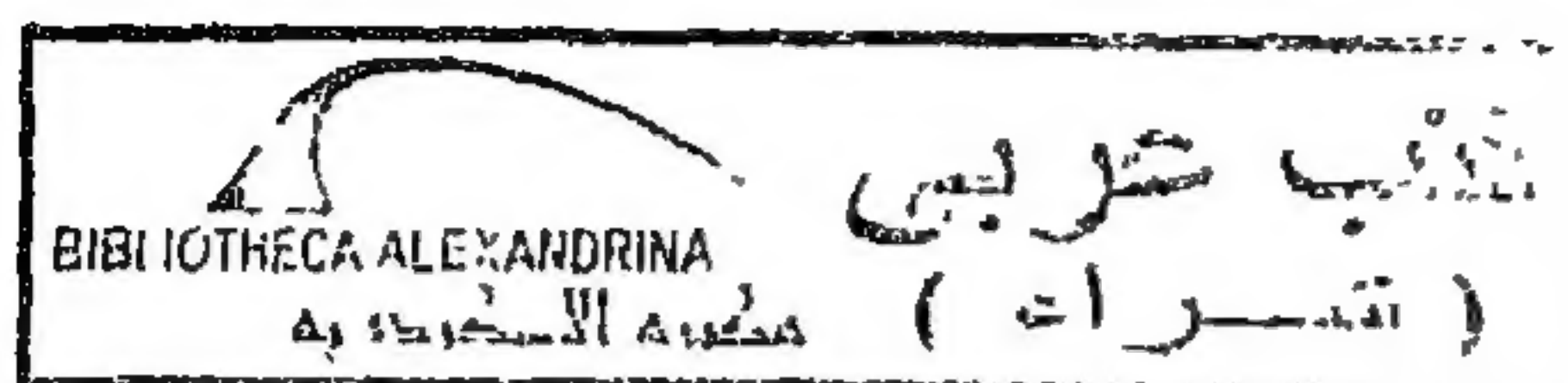


محمد عبد الحليم عبد الله









مطبعة خان مكتبة مصر

# أسطورة من كتاب الحب

محمد عبد الحليم عبد ربه

الناشر : مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي "النجاة"  
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه





أسطورة من كتاب الحب

طبيب « المركز الاجتماعي » رجل معروف بحبه للناس . ليس  
الناس الذين يختلط بهم ، أصدقاءه أو أقاربه . بل هم الناس  
كمجموعة ينظر إليها بشغف وتفحص نظرة الهاوى إلى مجموعة  
من الصور التي خلقتها يد فنان عظيم :

وطبيب المركز ليس وسيما ولا كبير السن ولا معتدًا بهندامه ،  
بل هو شاب متوسط العمر يهمل ياقة القميص ، وآثار التدخين  
بادية على أسنانه باستمرار . لكنه يتعهد « روحه » بالتنظيف  
المستمر . فهو عندما يحس بالقسوة لسبب من الأسباب التي  
تعبئ النفس الإنسانية بما يعيدها إلى موقع قريب من الرجل  
البدائي ذي الأظفار والأنياب — عندما يحس بذلك يتعهد نفسه  
وروحه بالعلاج . يبدأ في عمل يشعره بضعف الإنسان ، كأن  
ينظر إلى صورة بعوضة في كتاب طبي ثم يتذكر معها قصة أحد  
فرسان التتار الذي روى عنه أن معسكر أعدائه بات خائفا من حد  
سيفه . ولو أن هذه البعوضة قبّله قبل تلك الليلة عدة قبلات وسرى  
رحيقها المسموم في دمه فماذا كان يفعل ؟!.. ويأخذ الطبيب في  
الموازنة تحت سحابة من دخان اللفائف بين إبرة البعوضة وسيف  
الفارس وبين تلك الصيحة من حنجرتة العاتية وبين أنينها الواني

الذى يشبه الاستسلام للألم أو للذة وهى مكبة على دمه ترشف منه .

عندئذ يتذكر ضعف الإنسان فلا تلبث روحه التى تداعبها القسوة أن تتطامن ، ويستشعر شيئاً من الأسى على الإنسان كمجموع . ثم يلجأ إلى شئ يقرؤه . من تلك الكتب الأخرى التى أنتجها الوجدان لا العقل . شعراً أو قصة ليرى النفس الإنسانية عارية أمامه كجسد أحد الفلاحين من الذين يستلقون كل يوم بالعشرات على سرير الفحص . فلا يلبث أن يستريح .. لكنه فى هذه الليلة سمع نقراً على شباكها . نقراً كاد يعرفه أول الأمر . لكنه ما لبث أن استشعر الخوف . وسأل من وراء النافذة :  
— من ؟ ..

جاءته ضحكة منطقية على نفسها . متخاذلة . صاحبها يغالب همه فى الظلام . قال صاحبها بعد تنحنح :  
— أنا . متى ستعرفنى ؟ !

فتنهذ الطبيب وقام يفتح . والوقت خريف .. وفى الجو رطوبة مستحبة . ورائحة بعض أشجار الموالح من ليمون وبرتقال تملأ نفس الليل . ومع صرير الباب كانت ذقات عصاه التى يتوكأ عليها تعد على بلاط المدخل عدد خطا الوافد :  
— أهلاً وسهلاً يا عم الحاج . هل أحسست بتعب مفاجيء ؟ ..



ولم يرد عليه الحاج . كان جسمه الثقيل مائلا إلى الأمام وأردافه بادية الضخامة تحت جلبابه الصوفى الواسع الخفيف ، وأنفاسه سريعة مع ابتسام وأنين كأنه يريد أن يؤكد للطبيب أنه غير مبال بالآلام ..

ثم جلس بعد جهد على كرسى مريح اعتاد دائما أن يجلس عليه . وجلس الطبيب يفحص ملامح الوافد ، ويمهله فلا يكلمه حتى يستريح .

كانت يده اليسرى على قلبه ، وعصاه الغليظة بين فخذه ، ومنديله على جبهته يجفف به عرقا ومن ثنايا المنديل فاحت رائحة لا تنسب إلى أصلها بسهولة . وكانت عادة الطبيب مع هذا المريض أن يستمع إليه ، وأن يفحص كل ما يقول متلذذا به كنموذج تطبيقي لنفس غريبة يقع فحصها عنده في المحل الأول . ومن عادة هذا المريض الذى جاوز الستين أن يتكلم بلهجة شاكية ثم تنز نبرته قبل أن يسكت كأنه استسلم للألم أو اللذة . وفرك الطبيب كفاً بكف ثم سأله بصوت هادئ :

— هل أنت مأزوم ؟!

فرد بلهجة شاكية :

— نعم .. آه .. إننى بخير منذ ثلاثة أيام .. نعم .. ينطبق علىّ المثل القائل : « يا قاعدين يكفيكم شر الداخلين » .. المشاكل من برّه . يحملون إلى أخبارا تسبب لي أزمات فى



القلب .. آه ..

— خير ..

— ليس لى شأن بأحد . دخل على ابنى فأخبرنى أن قطن عبد الواحد عبده أعطى تسعة قناطير للفدان .

— ثم ..؟

— تسعة قناطير تصور يا دكتور .. وقطنى أربعة للفدان .. تصور . أن كل فدائين وأكثر عندى بفدان واحد عنده . و .. آه .. ثم .. قامت مشادة بينى وبين ابنى .. قلت له : إننا لسنا محتاجين لشيء فلا تضايقنى بأخبار الناس .. آه .. أنت تعلم أنه وحيدى .. ( وضحك فى عناء ) وكنت أنا وحيد أبى .. ( ها ها هى ) .. وليت الحظ يسعده فيصبح هو الآخر والدا لولد وحيد .. إنه لا يريد أن ينجب .. كل أطفاله يموتون ..

غمغم الطبيب لأنه يعرف السبب . دمهم غير نقى كما يقول الريفيون . لكن كثيرا من الناس كما هو معروف يرفضون أن يحملوا ألقاب مرضهم ، ولو أنهم يعانون منه فى خلواتهم فوق ما يطيقون . وقطع الطبيب عليه حديثه كأنما ليمنحه فرصة للراحة :

— غدا يشبع أولادا ..

فرد الرجل بصوته الشاكى :

— لا . ما أظن .. قلت له لا تذكر أمامى سيرة الناس خصوصا عبد الواحد عبده هذا . هذا الذى ولدت بقرته توأما يوم أجهضت

زوجة ابني . كل شيء عنده بغير حساب .. دجاجهم يبيض  
ونسائهم تلد وأرضهم تعطى أضعاف المعتاد .. وعبد الواحد عبده  
هذا .. آه .. في السبعين من عمره ، يصعد السلم الخشبي مثل  
عسكري المطافى وأنا .. لا أستطيع المشي على الأرض .. آه ..  
قلت لابني لا تذكره أمامي .. لكن ..

عندئذ وثبت للطبيب فكرة . أحس أن هذا الرجل يعاني شيئا  
غريبا . إنه كثيرا ما حدثه عن نعم أخرى لناس آخرين بطريقة من  
يريد أن يقيم من حسده سدا بين الله وعباده ، فقال الطبيب فجأة  
بعد أن نظر في ساعة معصمه :

— لو أنك حضرت قبل ذلك بساعة واحدة يا حاج . لرأيت  
شيئا عجيبا .

— خير ..

— كان عندي منذ ساعة المدعو عبد الواحد عبده .. جاء  
يعاني أزمة وظهر أنه في حاجة إلى الراحة ولن يصعد السلم مثل  
عسكري المطافى بعد اليوم ..

بدت راحة غريبة على وجه الرجل . أخذت أنفاسه تنتظم نوعا  
ما وقام الطبيب فجس نبضه فإذا به قريب من العادى . شعر أن هذا  
الرجل قد أدمن الحقن فهو إذا لم يأخذ منه جرعة بعد جرعة في فترة  
بعد فترة تسمم دمه مثل مدمن الأفيون . وأن استئصال هذا عمل  
عقيم . ثم عاد الطبيب فجلس ووضع ساقا على ساق وأشعل لفافة

واستطرد سائلا :

— عم الحاج ؟ ألم يسبق لك أن وقعت فى تجربة حب .. ؟  
اتكأ الرجل على عصاه وهو جالس كأنه يريد أن يقفز فخذلته  
قواه ثم شهق مجيبا :

— حب ؟ عيب يا بنى ..

— لا لا .. ليس قصدى عارا . إن قصدى شريف . فقد يحب  
الرجل زوجته ، وقد يحب ابنه ، وقد يحب إنسانا غير هذين .  
لكن بشرط أن يشعر أنه يستمد الجزء الأكبر من سعادته القلبية عن  
طريق الانسان الآخر ..

— ها ها ها ( ضحك بقوة ) أنا أحب الذى يعطينى .. وكل  
الناس كذلك ..

— دعك من الناس . تكلم عن نفسك فأنا شخصا أحب من  
أعطيه . أحب من أسهر فى سبيل البحث عن وقايتهم . وأحب  
أخى الصغير حين يعلن أن بذلته التى اشتريتها له ضاقت عليه  
ويطالبنى ببذلة أخرى . والإسورة الذهبية التى تلمع فى معصم أمى  
والتى ادخرتها من مرتبى .. والوجه المورد بلون الصنحة حين يدخل  
على وأنا السبب . والقلب .. والقلب يا عم الحاج حين ينتظم  
عمله بمعونة منى ..

تنهد الرجل وأعرض كأنه لم يفهم قصد الشاب ثم وضع كفه  
على قلبه من جديد ، وقال هامسا :



— إذن ساعدنى ..

— عبد الواحد عبده لم يمرض ولكننى كنت أداعبك ..  
 حملق فيه الرجل ولم يردّ ثم سأل فى احتجاج هادىء :  
 — ولماذا تقول ما قلت ؟

— لا شىء .. أحسست فقط — كما جربت — أن كثيرا من  
 المرضى يؤنسهم فى مرضهم أن ينضم إليهم مريض جديد ..  
 كأنهم وهم فى الخارج يعانون ما يعانيه السجين الواحد .. فى  
 زنزانه . لكن . عندما يصبح الواحد اثنين تخف وطأة الألم ولو  
 مؤقتا .. شيوع البلىا يا عمى يخفف من وطأتها ..

أطرق الرجل وأسند ذقنه على عصاه وبدأ عليه تفكير عميق .  
 وطال الصمت وطال ووصل إلى أسماعهم عراك طيور على ذوائب  
 شجرة قريبة . كأنها تتنازع العيش أو لعل واحداً منها قد سقط  
 على الأرض . وأغمض الرجل عينيه وكان كأنما عاد بذهنه إلى  
 الماضى . ولأمر ما — كالذى يصيب كل نفس — شعر بحاجة  
 ماسة إلى الاعتراف . ذلك الذى يسيطر على النفوس التى تحمل  
 عقدة الذنب فى صمت أكثر مما يسيطر على غيرها . وأحس لو  
 أنه باح بشىء مما فى صدره لانتظمت دقات قلبه : ذلك المخزن  
 الملىء بأشياء معنوية قد تكون فى ثقل الرصاص أو كثافة الزئبق  
 وهو مع ذلك ينبض فى دأب متواصل غير معترف بأحماله . ثم  
 صحا من غفوته ونظر بعينين متعبتين إلى الطبيب وقال :

— ممكن أن أحكى لك شيئا .. أنا الآن أكثر راحة .. ممكن أن أقول ولا أخاف .. إننى لم أحب أحدا . كنت إذا نظرت فى المرأة وأنا شاب أسأل نفسى حين أرى خيالى : « هل هذا الذى يشبهنى تماما يمكن أن أحبه لو أنه خرج من المرأة بقدرة الله وعاش معى . أفكاره ستكون أفكارى وميوله ميولى لكن ربما أختلف معه لأنى أختلف مع نفسى كثيرا . ما شعرت مرة يا ولدى ولو لدقيقة واحدة أن إنسانا أهم منى . والآباء والأمهات يجسسون بأهمية حياة أولادهم فى ساعات المرض ويدعون الله أن يكونوا هم فداء لهم . وعندما كانت زوجتى تفعل ذلك كنت أخاف عليها منى أن أخنقها رغما عنى . وكنا ونحن شبان نحكى لبعضنا قصصا فحكى لى أندادى عن القلب المشغول لكنى لم أجرب هذا ولم أشعر بوجود قلبى أبدا إلا إذا خفق من الجرى أو الخوف .. ثم شعرت به عندما خفق من المرض .. آه .. تعبت ..

كان الطبيب مستغرقا فى الاستماع ، متأكدا من صحة ما قاله الرجل . وكان يعلم شيئا آخر هو أن هذا الرجل يعيش فى قلق مستمر من ضجره بسعادة الغير . يجلس على قارعة الطريق ليذم الأيام التى كبرت الصغير وأغنت الفقير . كأن كل شيء ضده .. أو كأن كل نعمة كانت فى الطريق إليه ثم أخطأت فدخلت بابا غير بابيه . وعندئذ قال الشاب :

— اسمع يا عم الحاج عندى حكاية طريفة فهل أنت على

استعداد لسماعها ؟

— بكل امتنان !..

— حسن : كان لى جدة عظيمة ، عظيمة ليس معناها أنها كانت أميرة أو بنت رجل غنى . لكن عظمتها فى نظرى كانت فى قدرتها على امتلاك قلوب كل من حولها ، وكنا نتخيل ونحن أطفال ملتفين حولها من بناتها الأربع أن الحلة الصغيرة التى تقدم لنا منها طعامنا يوم نزورها لا يمكن أن تفرغ مما فيها ولو كنا مائة طفل . لماذا ؟! لأننا كنا نأكل من يدها القليل فنشبع ثم تلمسنا بأناملها فلا نلبث أن ننام .

وجدتني هذه حكت لى حكاية لا أنساها ، وكنت يومئذ فى السابعة من عمري .. عندها .. فى ليلة شتوية وأمى فى المدينة عند طبيب العيون الذى مكثت عنده شهرا كاملا . قالت لى جدتى : كان فى إحدى البرارى المليئة بالأشجار والشمار والطيور المغردة ، شجرة كبيرة على شاطئ النهر وهذه الشجرة كانت أسعد الأشجار حظا فى هذه المنطقة كلها ؛ لأن عليها عدد لا يحصى من أصناف الطيور المغردة ولأنه يجلس تحتها كل يوم شاب وفتاة يحب بعضهما بعضا ، وكان الشاب يغنى لها وهى ترقص وقد صنعت له حزاما من الأغصان وعقدا من الأزهار وفى كل يد ثمرة ناضجة ، وعندما يبدأ هو فى الغناء وتبدأ هى فى الرقص تأخذ جميع الطيور على الشجرة التى تظللهم — تأخذ فى الغناء





دَقَّاتِ عَصَاهُ تَعِدُ خَطَاهُ ...

فرحة بالحب .. لكن كان بين تلك الطيور طائر مجهول الاسم ينظر إلى هذه الدنيا العذبة فوق الشجرة وتحتها بكثير من الحزن وذلك لعجزه الطبيعي عن الغناء ، لكن ما لبث هذا الشوق أن دفعه على تقليد الطيور فأخذ يشقشق بطريقة ما . وبمرور الزمن انقطع الحبيبان عن الحضور وكفت الطيور عن الشقشقة وبذلك نسي هذا الطائر المجهول الاسم غناؤه مرة أخرى وعاد إلى الصمت . ثم مرت الأيام وإذا بالحبيب يحضر إلى الشجرة ويجلس تحتها وحده صامتا يبدو عليه الحزن والمرض وتعرف الطيور بغريزتها أن حبيبته قد ماتت لأنه جلس يغنى بصوت خافت ودموعه تتساقط على الأرض . لكن الطائر المجهول الاسم وكان قد فقد وليفته هو الآخر أحس بشوق جديد عندما رأى الحبيب الوحيد شريكه في الأسى ، فبدلاً من أن يغرد أو يشقشق نطق كما ينطق الإنسان وشارك هذا الشاب حديثه عن الحب . يردد كل كلمة يقولها ولا يزال كذلك حتى اليوم .

إن البيغاء لم يكن ناطقا ولا مغردا ولا مشقشقا ولكنه نطق عندما لمس له الحب ..

وسكت الطبيب . وقال الرجل :

— يا لها من حكاية طريفة !. لكن كيف تذكرها حتى الآن وقد

مضى عليها ثلاثون عاما ؟

فقال الطبيب :

— ذلك لأن قلبي حفظها كما يحفظ كيف يخفق . وأنا  
يا عمي العزيز أهديها إلى قلبك فإن حفظها كما حفظها قلبي  
أصبحت سليما معافى . فأنت لست مريضا بالقلب ولكنك يا  
سيدي محتاج إلى الحب .

وفى الخارج — عندئذ — غرَّد بلبل فى السماء الندية كأنه  
يؤكد للساهرين — الطبيب والمريض — أن أسطورة البيغاء  
صحيحة





غناء عبد الأقدام

منذ ثلاثة أعوام وهو جالس أمام هذا الكرسي .. ولسبب أصبح واضحاً في ذهنه أصبح يطلق عليه اسم « الحصان » ، وهناك في أعماق نفسه علاقة تشبه المودة التي تولد بمرور الزمن بين الحصان والسائس . فهو ينظر إلى هذا الكرسي ذي المحاور الدوار والمستوى على منصة من الخشب يلمع عليها مشمع ألوانه زاهية — ينظر إلى هذا الكرسي نظرة مودة تشوبها الألفة التي تفرض نفسها علينا فرضاً .

فهو منذ أن اشتغل في صالون مسح الأحذية هذا وهو يحس أنه ( يعيش بالمقلوب ) . المرايا الكبيرة تقع خلفه . وطالما حمله في وجه الناظرين فيها . وبين وهلة ووهلة وهو منكب على عمله في تلميع جلد الحذاء يفتن إلى أحدهم وهو يسوى شاربته أو يعدل قميصه أو يعيد إحدى خصلات شعره إلى مكانها إذا كان شاباً في مقتبل العمر . وقد يتسم الشاب لنفسه دون أن يلحظ أن ذلك القابع هناك على الأرض يلاحظ ابتسامة الإعجاب في غبطة محزونة .

وأحس أنه ( يعيش بالمقلوب ) أيضاً لأنه أمام هذا الكرسي لا فوق هذا الكرسي ولأنه يرى الأقدام لا الوجوه . وكثيراً ما تمنى لو أن الظروف قد أتاحت له أن يحترف حرفة أخرى . وقال في نفسه



يومئذ وهو مكب على حذاء يبلغ طوله قدماً إنجليزيا .. طول المسطرة .. كان موحلاً وكان ينقيه من بلاياه ، والشاب صاحب الحذاء تبدو عليه البدانة والميل للمغامرة . ومن فوق الكرسي كان يحملق في المرأة أمامه والشاب الذي تحت الكرسي يحملق في الحذاء وظهره للمرأة ويفكر : « لو أن الظروف أعطته مهنة أخرى .. حلاق مثلاً . إنه على الأقل يكون في حال سعيد . فالمرأة أمامه ويقضي عمله وهو واقف منتصب الطول . ووجوه الناس في متناول نظره حتى ولو كان خلفهم وهو يعمل لأنه سيرى وجوههم في المرأة مع وجهه هو وسيتولى تنظيف أعظم ما في الإنسان .. الرأس .. وقد يتابع في صمت وهو يستمع إلى ضربات المقص حركة الأفكار في ذلك الإنسان الصامت حين تسرقها المرأة من ملامح الوجه ويراها هو دون أن يفتن صاحبها . أما في هذا الوضع .. تحت الكرسي .. وهو ينظف أدنى الأشياء فإنه لا يستطيع أن يرى ما هو جميل .. مثل الملامح والأفكار ولون الشعر والبشرة .

وسأل نفسه : لماذا احترف هذه الحرفة ؟ وسرعان ما جاء الجواب من ماضيه . إنه كان يكره كل ما هو صعب . كان يريد أن يتعلم صنعة سهلة . وعندئذ قال له أبوه : وهل هناك صنعة سهلة يا بني . إن السهل لا يمكن أن يكون صنعة . فالصنعة معناها تعب والتعب معناه عرق .

لكنه لم يستجب للنصائح . لم تعجبه ميكانيكا السيارات  
 فهرب .. عزَّ عليه أن يلبس ملابس ملوثة وينام على ظهره تحت  
 هياكل العربات ويخرج بخدود عليها بقع سوداء ..  
 وأخيرا أوصلة المطاف إلى هنا .. حيث تقع المرايا خلفه  
 والوجوه أعلاه . وها هي ذى يدها قد امتلأت بقعا من كل لون .  
 وجلبابه الذى يرتديه لا فرق بينه وبين خرقة التنظيف التى يمسكها  
 بيده .

وتنهّد . ونظر إلى الكرسي الخالى نظرة السائس إلى الحصان .  
 لقد لمّع خشبه اليوم بأمر صاحب الصالون منذ الصباح الباكر وغير  
 بياضة الشلّة المدوّرة فوق الكرسي . كساها بياضة جديدة فى أول  
 الأسبوع . وأدار الكرسي الخالى أمامه عدة مرات على محوره وتركه  
 مستقرا ذراعاه مفتوحتان نحو الباب كأنما ليستقبل الزبائن .  
 وبدورة واحدة يفعلها الزبون بجسمه يصبح فى وضع مواجه للمرأة  
 وودماه على قدمي الحديد المثبتين أمام الشاب . ليمسح ..  
 وشعر الشاب بشيء غريب . أن علاقة مثل علاقة « الأسرى »  
 تربطه بهذا الكرسي . ولذ له تأمل الناس وهم يستمدون شيئا يشبه  
 الخيلاء من جلسته هو وفكر : « هل يشعر الجالس على كرسيه ،  
 المحلاق بمثل هذه الخيلاء ؟! » .

وأجاب نفسه بالنفى .. « لا » ..

إذن لم هذا ؟! هل الزهو والخيلاء يولد من المتضادات ؟.

ولعله فهم هذا . ففجأة تذكر نفسه وهو غلام .. واقف بكل ما فيه من فكاهة وعدم مبالاة ينظر إلى طيور « أبو قردان » العارية السيقان المنقوسة الظهر والكتف .. ينظر إليها ويضحك كأنه لم يرها طول عمره . وعندئذ سأله أبوه : « ماذا أصابك يا ولد .. إنها مخلوقات الله !! » .

فرد قائلا : « تصورت يا أبى أن الطاووس وأبو قردان حبسا فى قفص واحد » .

وترك والده يرسم بقية الصورة بخيال رجل كما يرسمها هو الآن . فأحس أن الخيلاء أحيانا تأتي بسبب « كرسى » أو بسبب رؤية من هو أقل ذكاء أو مهارة أو جمالا أو حتى .. « مهنة » .. وعرض شفته ... « لو لم أهرب من الصعب لكانت حياتى اليوم سهلة » !.

\* \* \*

فى أحد شوارع القاهرة الآن بحى السيدة زينب شاب يلبس معطفا جديدا .. قديما ، فوق جلباب جديد جديد ، وفى قدميه حذاء جديد قديم وجورب جديد جديد .. يشعر بخيلاء طارئة . كم وقف أمام واجهات صالونات الحلاقة ومرايا الفاترينات ليتأمل وجهه المرتاح وشعره المرجل الملمع بالبريانتين .

وجلس على أحد المقاهى وصفق فإذا برجل يسارع مليا

تصفيقته وما لبث أن قدم إليه فنجالا من « السحلب » ..  
 نكهة « القرقة » على سطح الشراب تداعب أحلام هذا الشاب  
 وامتزجت هذه بروائح الليمون والبخور مع روائح « الزلابيا » التي  
 تقلب في دكان مواجهه فمنتحت الشاب خيالا مجنحا حمله إلى قمة  
 مئذنة السيدة زينب التي يراها عبر الميدان . وتأوه في تلذذ وفرك  
 يديه .. ونظر فيهما كأنه يقرأ في خطوطهما همس المستقبل ..  
 كان يتأمل الدنيا بعين مرتاحة ، ورأى ملامحها بعين الفنان  
 الذي يرى في الخرائب شيئا تعبر عنه « الريشة » ، وفجأة قام ليعبر  
 الشارع متجها إلى حيث لا يدري ..

إن وجه القاهرة اليوم في نظره ذو ملامح أخاذة .. كم تمنى لو  
 استطاع أن يضمها بين حضنيه .

وسمع صوتا يلعنه وهو يعبر الشارع ، وكان ضجرا نافذ الصبر  
 يتهمه بالعمى . وحين نظر إلى مصدره وجده رجلا يسوق سيارته  
 وقد وقف بها فجأة قبل أن يدهمه ؛ لأن ذلك الشاب ذا المعطف  
 الجديد القديم والجلباب الجديد الجديد ، تحرك فجأة إلى العبور  
 وهو واقف على إحدى جزر الشارع فلم يعط فرصة لسائق السيارة  
 أن يعرف نيته عن الحركة .

غير أن الشاب لم يأبه بهذا . سار صامتا وكأن الكلام لم يوجه  
 إليه ، بل .. عجب حين تمنى بعد أن وصل إلى الرصيف أن لو  
 كان دهمه فمات .. إنه لا يريد أن يفارق هذه الحالة من الرضا



والطمأنينة والسعادة بشيء غير محدود يراه في كل شيء ويشمه في كل رائحة ، وبما أن هذه الحالة غير ممكن لها أن تبقى فما أروع أن يفارق الإنسان فيها الحياة !..

وها هو ذا ينظر إلى حذاءه فيراه قد اتسخ . كان في ميدان السيدة خندق طويل وطنين وتراب لأنهم يصلحون أناييب المياه . وقد تلوث حذاءه وهو يعبر الميدان لكنه لم يشعر به إلا في هذه اللحظة . ولعل السبب المباشر لهذا الإحساس أنه رأى لافتة كبيرة كتب عليها ( صالون مسح الأحذية ) ورأى عند مدخل الصالون مباشرة كرسيًا ذراعاه مفتوحتان نحو الشارع مستويا على المنصة وكأنه حصان ملاءه الزهو .

وعرج ودخل ..

جلس والمرأة أمامه وقدماه على قدمي الحديد وشاب في مثل سنه كأنه مولود معه في يوم واحد قابع عند الأقدام . ونظر إليه الشاب ذو الحذاء الجديد القديم بكثير من الرثاء ، وهو في أوائل العمل ثم ما لبث أن سألته :

— من متى تشتغل في ..

رفع الشاب إليه رأسه وسأله :

— في .. ما قصدك ؟!.. الدكان أو الصنعة ؟!

— قصدى الصنعة !!

فتهد الشاب وسكت ، وأخذ يلمع الحذاء بحركة سريعة وكل

شيء فيه يهتز . شعره . كتفاه . ركبته . كأنه يزيل أحوال الدنيا  
عن هذا الحذاء . ولم يرد عليه ..

ومرت لحظات كأنها دهر . كان الشاب الجالس على  
الكرسي فيها مشغولا بمطالعة صفحة وجه نفسه في المرأة أمامه  
ويذكر بحواشي شعوره أن شخصا آخر يعطى ظهره للمرأة وأن قدمه  
داخل الحذاء تشعر بلذة يد تلمسها من فوق الجلد الذي يدهن  
ويلمع .

ولم يفق الجالس على الكرسي إلا على صوت الشاب الجالس  
على الأرض وهو يقول لصبي صغير بلهجة عصبية :  
— افتح لنا الراديو يا بني !!

وفعل الصبي . وأخذ الراديو يغنى . والشاب الجالس أمام  
الأقدام يتابع الأغنية بصوت منخفض حزين ..

نظر إليه الجالس على الكرسي وشعر بإحساس متفوق .  
إحساس من يريد أن يربت على شعره ذى اللونين المتداخلين في  
أصفر كالح وأسود غير داكن ، وبإحساس من يريد أن يعطيه كل  
ما فى جيبه من قروش لأنه لم يكن موسر الحال .

ونظرا إلى يديه الملونتين بأنواع من البقع وجلبابه الذى يشبه  
الخرقة التى يعمل بها — فى اللحظة التى كان هو فيها قد انتهى  
من فردة حذاء واستعد للعمل فى الثانية . وفى وهلة ذات عمق يشبه  
الدهر . أحس الجالس على الكرسي أن الشلثة تحته لينة جدا وأنه



كان يلوم نفسه .. تلك التي نسيت ماضيها

لا يريد أن يفارق هذه الجلسة . وكأنه نسي ذلك الإنسان الذى  
شعر نحوه بالثناء أول ما رآه وتابع دندنته بقلبه وهو يغنى عند  
قدميه ..

وعندئذ .. نظر الجالس على الكرسي إلى يديه هو . وكانت  
كفاه مخبئتين فى جيبى معطفه .. نظر .. فرأى بقعا .. سوداء  
وحمرء .. لم يستطع الغسل القوى أن يزيلها ..

وعندئذ نزل من على الكرسي معتذرا بأنه داخ .. وجلس على  
كرسي عادى ، وقدم الفرده الأخرى للشاب بعد أن خلعها لكى  
ينظفها وهى غير ملبوسة .

كان قد داخ فعلا .. لأن زهوا وخيلاء أنسته أنه هو .. هو ذلك  
الذى يحترف نفس الحرفة والذى بحث وهو صغير عن عمل سهل  
وهرب من ميكانيكا السيارات لكنه كان فى إجازة .. ولذ له أن  
يذوق تجربة الجلوس فوق هذا النوع من الكراسى التى قضى عمرا  
وهو جالس تحت أقدامها .. فداخ ..

منح الشاب منحة عجب لها لأنها فوق قدرة من هو فى مثل  
مظهره . وسار فى الطريق ينظر إلى حذائه اللامع ويخيل إليه أنه قد  
حمل أحوال الدنيا ؛ لأنه كان مهموما . كان يلوم نفسه . تلك  
التى نسيت ماضيها ؟! .. بل حاضرها فأحس بزهو على رفيقه فى  
المهنة التى يكرهانها معا ..

لكنه كان يقول فى نفسه : « هناك أشياء يجب أن يعملها  
الناس لأنفسهم بنفسهم .. حبا فى الناس » ..



العارف

ماذا يساوى هذا « العود » الذى يحتضنه وماذا تساوى الأنغام  
إذا ما وزن الناس بين هذا وبين ما قد سمعوه فى الداخل منذ خمس  
دقائق على الأكثر !؟

بعض الناس اعتبروه « بقعة » يجب أن تزال من هذا المكان  
وبعض الذين يكثرون التردد على هذا الملهى الليلي ، اعتبروه  
( علامة ) أو أحد ملامح المكان من الخارج ؛ فهذا الرجل مثل  
الشامة على الوجه الحسن ، والشامة وحدها لا تزيد على أن تكون  
نقطة سوداء لكنها مع الخد تكون منظرا لا تشبع العين منه .  
وهذا الرجل المسن الذى يجلس على كرسى من الخيزران  
اختصرت أرجله الأربع إلى نصف طولها بمنشار — يحتضن عوده  
ويلبس سترة سوداء ورأسه بلا طربوش وعلى عينيه نظارة فى لون  
السترة . ومع هذا الرجل آخران فى منتصف العمر يكملان المنظر  
خارج الملهى كإحدى اللافتات الثلاث مثل راية ملونة إن فقدت  
أحد ألوانها فقدت جنسيتها تماما . أحد الرجلين يسند إلى  
الحائط صندوقا يبيع فيه السجائر والآخر يضع صندوقا زجاجيا مليئا  
بالسودانى المقشور وفى الشتاء يشوى إلى جانبه حبات « أبو  
فروة » .

وترتفع فى هذه المنطقة رائحة الأكل والتبغ والألحان عندما  
يتقدم المساء ويبدأ رواد الملهى فى التوافد إليه .



الثلاثة مثل راية ملونة . إن فقدت أحد ألوانها فقدت جنسيتها

كان أكثرهم دخلا بائع السجائر ويليه فى الدخل بائع السودانى ، أما العازف فكان أقلهم دخلا لكنه كان فى حقيقة الأمر أكثرهم حظا باهتمام الناس . كل العيون تراه وإن كان لا يرى أحدا ولا قلب إلا ويخفق له حتى ولو لم يكن هناك ( تعامل ) . وكيف يحدث التعامل ؟ سلعته .. أعنى نغماته تملأ الهواء حول جدران الملهى . نعم .. وقد يأخذها الناس بأذانهم — بل هم يأخذونها حتما — ثم يمضون دون أن يدفعوا الثمن . وهو لا يرى إعجابهم أو حتى رثاءهم لأنه مكفوف ، وربما سمعوه وهم بعيدون عنه .. وسلعته لا يمكن استردادها إذا لم يدفع ثمنها فهى تنتشر كالهواء دون إرادته .

أما السجائر وأبو فروة فهما سلعتان يتحكم فيهما صاحبهما . بكل قواه ..

لذلك فقد كان رواد الملهى يرون الانكسار على وجه العازف . وكثيرا ما ربطوا بينه وبين بعض العازفين الذين سمعوه فى داخل الملهى هؤلاء اللابسون ملابس السهرة . بياض قمصانهم فى نضاعة لا توصف كأنه مصدر البياض فى كل شىء أبيض ، وسواد سترتهم وأحذيتهم لا يوصف كأنه أيضا مصدر السواد لكل شىء أسود . رؤوسهم مرفوعة إلى فوق وهم يعزفون وشعورهم مدهونة وعيونهم تحمق فى شىء واضح .. مكتوب .. « نوتة » . أما هذا الرجل المكفوف فيعزف وهو منحني وشعره أشعث



لا يلمع . وذقنه غير مخلوق . والأهم .. أنه لا ينظر فى شىء .  
 لا مكتوب ولا مشطوب . إنه ينظر فى فراغ مظلم متماوج . ربما  
 رأى فيه بأذنه كلمة رسمت صورة .. لشخص يسخر أو يرثى أو  
 ضحكة مغممة تلفها شهقة من امرأة خرجت من الملهى وهى  
 تحلم بالحب غير ملقية بالآ إلا لدفع « أبو فروة » فى إحدى ليالى  
 الشتاء الدامع .

غير أنه قد كان فى قلب هذا العازف شىء يعتز به . كان يفاخر  
 به أبدا زميليه العزيزين . زميليه اللذين لم يفترقا منهما ولم يفترقا منه  
 منذ أكثر من عشر سنوات ، كان يقول لهما وهو يتسم :  
 — الفرق بينى وبينكما أننى أعطى أكثر مما آخذ . فليس كل  
 الذين يسمعون عزفى وغنائى يدفعون لى . أما أنتم فإنكم تأخذون  
 أكثر مما تعطون . فأحدكم يبيع الدخان بأعلى من سعره والآخر  
 يبيع السودانى بثمان الفستق أو ( أبو فروة ) وكأنه يبيع الدفء  
 لقلوب الناس .

ويضحك الزميلان من غروره فى الوقت الذى يكون فيه هو غارقا  
 فى تأملات .. يرى فى الرقعة السوداء التى لا نهاية لها صورة  
 أيديهم الممتدة . أما هو فلا يمد يدا لأحد ، إنه فقط يسمع على  
 حواشى لحنه وغنائه — بين فترة وفترة قد تطول وقد تقصر — يسمع  
 رنة معدنية مبهمه . سريعة كتحية من مجهول .. وعندئذ يعرف  
 العازف أن يدا طيبة قد أعطته بعض الأجر . نصف قرش أو قرش

بأكمله أضيف إلى النقود في التطبيق الموضوع أمامه على الأرض .

\* \* \*

وقف أمامه الليلة شاب وفتاة . شم من رائحتهما خمرًا .. كانا خارجين من الملهى . من فمهما تروح رائحة خمر حقيقية ومن أعطافهما خمر الشباب . كانا ثملين لدرجة معقولة ولكن جو نهاية الليل والبرودة الندية والعطش الذى يحرق بعض أصحاب هذه السن — جعل الشاب يرى فى العزف شيئًا جذابًا ..  
اشترى سجائر ثم اصطحبا معهما بعضًا من ( أبو فروة ) وأخيرًا انتبها إلى العازف ..

كان يدندن .. لم يكن صوته عاليًا فى العادة . كان يخشى أن يחדش إحساس أحد . يخافت بالصوت واللحن ليعطى فرصة الاختيار للمتطلع الفضولى أو المخلص فى الاستماع .. وكان يقول شيئًا عن الشباب ، وشيئًا آخر عن فوات الفرصة كان معنى ما يقول :

« عد يا شبابى .. »

« لأمنح غفلتك الحكمة التى أعرفها الآن »

« تعال .. »

« لتجعل عودى ينطق بفصاحة .. »

« وليصبح حلوا .. »

« كل ما يقوله الليلة وهو يتلثم .. »

« تعال .. »

قال له الشاب ضاحكا مخمورا :

— أوو .. ه !! وكنت قد علمت سيد درويش ومن جاءوا بعد  
فنا عظيما .. ( وضحكت الفتاة نصف ضحكة ذيلتها بشهقة  
طويلة ) . واستطرد الشاب ليدخل مزيدا من المسرة إلى قلبها :  
— لو ضاع منك هذا العود .. ل ..

سكت العازف . وانبرى للشاب فجأة بائع السجائر كأنه  
خرج من قمقم .. طويلا بادي الطول . جلبابه مفتوح الصدر  
بصرف النظر عن حالة الجو . وأمسك كتف الشاب وقال له  
بلهجة حاسمة :

— هل طلب هذا الرجل منك شيئا ؟!

رأى الشاب والفتاة بواذر الشرفى عين المتكلم . فلهز رأسه  
نفيا وفتحت صديقتة عينيها . فاستطرد الشاب بصوته الحاسم  
المرتفع :

— وهل أعطيته أنت شيئا ؟!

فلهز رأسه نفيا ولم يرد ، وبقيت الفتاة على حالها من التوجس  
والانتظار والخوف . فاستطرد الشاب من جديد بصوته الحاسم  
المرتفع أيضا :

— وهل تظن أنه يبيت جائعا إذا لم تكن أنت على قيد  
الحياة ؟!

فهتف الشاب مؤكداً بيقين من يعود إلى الإيمان إن كان في خطر :

— لا .. والله العظيم !!

فعاد الشاب الآخر يهز كتفه ويقول :

— كان على باب جامع الشيخ رفعت رجل آخر كفيف يقرأ القرآن .. وكان المصلون يستمعون إليه على باب الجامع ويعطونه ... هل تفهم !؟

تهيج المخمور وأخذ يموء كالحمر :

— فهمت .. ف... هيمت .. آه ..

فتركه الشاب ليمضي إلى شأنه . وفي غمار هذه الحوادث الصغيرة سمع العازف المكفوف صوتاً ليس له رنين .. في خفة جناح فراشة . فاحت منه رائحة عطر ... في أنفه وأذنه . وفي العالم اللججى الأسود الواقع أمام عينيه رأى ما يشبه الشياطين وعند ذلك نادى بائع السجائر وكان الشاب والفتاة قد بدأ في التحرك منذ وهلة صغيرة وقال العازف :

— حسين .. انظر بسرعة ماذا زاد في الطبق أمامي ..

— ورقة بعشرة قروش ..

— الحقهما بها . فيها رائحة عطر المرأة التي معه . لن ألمسها .. وفيها رائحة أخرى .. اجر بسرعة يا حسين فإنني أسمع صوته وهو يطلب ( تاكسى ) ... من أجل كرامتنا نحن الثلاثة .. وفعل الشاب ما أمره به الرجل ..

\* \* \*



ليس حتماً أن يكون ما قد وقع فى الليلة السابقة من حوادث صغيرة للعازف وصاحبيه سبباً فيما وقع فى الليلة التالية ..  
 ففى نفس هذه الليلة الباردة نقص الثلاثة واحداً .. غاب العازف عن المكان . لا تفوح إلا رائحة السجائر المحترقة و ..  
 ( أبو فروة ) المشوى . ومكان العازف خال تحت اللافتة الكبيرة التى تحمل صورة عارية لبرامج الليلة . وعين صاحبة الصورة تحمق إلى المكان الخالى بنظرة مخمورة كأنها تسترد وعيها . والرجلان الآخران يشعزان بنقص محسوس . ليس فى الروح وحدها . بل إحساس من يلبس ثوباً مفرداً على جسمه ويمشى به للمرة الأولى .. شبه عرى .. أيضاً .. وبرودة تكاد تكون داخلية أكثر مما يحدث من لفح الريح .

وأخذاً يرقبان عيون رواد الملهى . كل من يشتري السجائر أو السودانى أو ( أبو فروة ) يسأل . قال شاب رزين :  
 — الله .. أين صاحبكما ؟! نقص المكان شيئاً مهما .  
 ونظر صاحباه فى صمت ..  
 وقالت امرأة لعوب :

— ياه !! .. أين هو ؟! .. هل دخل هنا ؟! ( وأشارت إلى الصورة فى اللوحة الإعلانية ) . ونظر صاحباه فى صمت .  
 لكن رجلاً ثالثاً ضعيف البصر أخذ يحمق فى المكان الخالى وهو مطأطئ رأسه كأنه يبحث عن قطعة نقود سقطت منه ونظر لصاحبيه العازف ولم يسأل

\* \* \*

ولم يمض وقت طويل . أسبوع واحد . ثم رأى رواد الملهى منظرا فريدا . منظرا كان هو العازف نفسه غير أنه ذو تأثير مضاعف ..

كرسيه الذى اختصرت أرجله الأربع إلى النصف بمنشار موضوع فى مكانه المؤلف تحت لوحة الإعلانات ، وعلى ظهر الكرسي سترة العازف السوداء ، وعلى الكرسي نفسه حيث كان يجلس ( عوده ) المعروف . العتيق الكابى اللون . وفوق العود صورة للعازف استندت إلى ظهر الكرسي ، وأمام الكرسي ( الطبق ) ، وامرأة مسنة متشحة بالسواد تجلس على بعد . يفصل بينها وبين ( تركة ) زوجها صندوق السجاير وصندوق السودانى للصديقين .

كل رواد الملهى عرفوا القصة ومدوا أيديهم إلى الطبق . لكن هذا الوضع لم يطل أكثر من بضع ليال ..

اختفت سترة العازف وصورته من فوق الكرسي القصير . ولم يلبث زواد الملهى أن رأوا مكان الصورة والسترة امرأة الرجل : . وارثة التركة .. غير أنها كانت تعزف فى صمت ، وبلا غناء . مطرقة دائما . لا ترفع عينيها نحو أحد . ولا تمد يدها . وكان عزفها أمهر بكثير من عزف زوجها .. وتساءل الناس :

— هل كان الرجل قد علمها العزف قبل أن يموت ؟!

وقليل منهم كان يعرف الجواب الواضح ، فقد علمها أستاذ كبير . مشهور جدا ويعرفه كل الناس .. اسمه الألم .

الامبراطور المخلوع

— « من يصدق أننى كنت أسكن هذا القلب !؟ » .  
 وكان هذا القلب موضوعا أمامها على منضدة بجانب  
 السرير .. بغير خفقات .. مغمورا فى سائل طبى يحفظه من  
 التلف . بعد أن كان هو صاحب السلطان المطلق على جسم هذا  
 الرجل الذى أحبته والذى تراه الآن ممددا فى فراشه مغمض العينين  
 وتسمع أنفاسه وترى تورده خديه . ولا بد أنه الآن يحلم بشيء ما .  
 ترى بماذا يحلم بعد أن أصبح فى صدره قلب فتاة !؟  
 وتبسمت له . ونسيت نظراتها الهائلة حوله . إنه لم يكلمها  
 حتى الآن لأنها لم تستطع أن تأتى إليه إلا اليوم .. قطعت فى  
 القطار إليه مسافة لا تقل عن ثلاثمائة من الكيلومترات . فى نفس  
 القطار الذى تعارفا فى إحدى مقاصيره . ومنذ ذلك اليوم خفق قلبه  
 هذا الذى تراه . خفق بخبها عنيقا . وسمعت خفقه بأذنها وقال  
 لها يومئذ : « هل تسمعين .. نعم تسمعين .. أنت قانون الحركة  
 فيه . ويوم تتخلين عنه فإنه سيصبح مواتا » .  
 وها هو ذا أمامها مثل إمبراطور مخلوع . كان يأمر فصمت ..  
 وكم قال لها صاحبه : « إن قلبه هذا شديد التنبؤ بالغيب . فهو  
 مثلا يحس أنها ستخلف ميعاده وأنها ستتزوج رجلا غيره وأنه  
 سيعيش بعدها فى تعاسة » . وقال لها :



« إن قلبه كان يأمره بأن يخرج في الظلام لكي يقف على مقربة من بابها حيث يكون الليل أشد حلوة تحت إحدى العرائش المزروعة هناك والتي تعشش فيها طيور تزقزق في صمت . » . ونظرت إلى أنفاسه المنتظمة وتساءلت عن أحلامه . ثم نظرت إلى قلبه المغموس في السائل وفتشت عن موضع الأحلام فيه . ولم تدر لماذا وقعت عينها على مرآة معلقة في الحوض في الحجرة . لم تكن المرآة كبيرة لكنها عكست من خلال النافذة أمامها — جزءا كبيرا من حديقة المستشفى وبرجا عاليا لإحدى الكنائس . وكل شيء أمامها في المرآة يكاد يلمس والأغصان تتحرك إذا لمسها الهواء . وتصورت أن المرآة قد كسرت . ثم سألت نفسها : هل تبقى الصورة ؟! وعندئذ وقع نظرها على القلب .. ذلك الإمبراطور المخلوع الذي كف عن تسيير عالمه والسيطرة عليه . عالمه الممدد الآن في السرير تحت حكم قلب آخر .. ذلك الإمبراطور حين خلعه الأطباء لم يتيحوا له أن يهرب بشيء خارج الحدود . بدليل أن عالمه هذا .. ذلك الجسم .. لم يمت . لأنه .. إما أن يأخذ كل شيء وإما أن يترك كل شيء ..

لقد ترك ذكرياته في جميع الخلايا ومضى . فحبيبها الممدد الآن في الفراش مزرعة عجبية . لم يعد هو هو .. إنسانا عاديا .. بل أصبح صدره مثل أصيص نقلت إليه شجيرة بجذورها بعد أن خلعت منه شجيرة . لعله الآن يحس بأن شيئا غريبا يجثم على صدره ... كابوس ينبض . ومع كل نبضة تتساءل مناطق الحس

فى جسمه عن الخبر ، وشيئا فشيئا يتم التفاهم وتندمج الشجيرة  
فى أرض الأصيل الجديدة . يندمج القلب فى الصدر .  
وتستجيب مراكز الجسم كله لأوامر الإمبراطور الشاب .  
وتبسمت الفتاة .. ونظرت إلى الإمبراطور القديم الهرم  
المغموس فى السائل الطبي . لقد لعبت به كثيرا . جعلته يخفق  
فى الدقيقة الواحدة ضعف خفقاته العادية . كانت نظرتها تجعله  
يجفل مثل طائر مذعور وأحيانا يستنيم لها فى هدوء كفرخ طير  
فرشت له أمه الزغب . وحتى وهو فى أشد ساعات مرضه ما كان  
يعجز عن التعبير . لأنها ساكنة فيه .

وها هى ذى الآن تنظر إليه .. ولا شئ يحدث ..  
وكانت أيضا ترى نفسها فى حدقتى عينيه ، هاتان اللتان أسبل  
عليهما أجفانه الآن راقدا وهو منهك . يتنفس بقلب آخر . وكان  
يقول لها عندما يراها تحديق فى عينيه : « ماذا ترين فيهما ؟ »  
فتقول : « إننى أرى نفسى .. صورتى فى كل عين .. وأرى  
قلبك .. قلبك فى عينيك .. لا .. بل قلوبنا فى عيوننا ... ولو لم  
تكن قلوبنا فى عيوننا لضل الناس بعضهم عن بعض . فعيوننا هى  
النوافذ التى نرى منها ما فى الصدور بدليل أننا نطرق أو نغمض إذا  
أردنا أن نخبئ ما فى صدورنا ... » .

ونظرت إليه تحت ملاءة بيضاء فى لون السوسن . كان جبينه  
مقطبا نوعا ما وإجدى كفيه مقفلة على هيئة قبضة . منظر يدل  
على الإصرار حتى خيل إليها أنه على وشك أن ينهض من فراشه



ونظرت إليه تحت ملاءة بيضاء في لون السوسن

ليجربى ثم يصعد سلما لعمارة ارتفاعها عشرة طوابق . وبعد ذلك بدقيقتين خيل إليها أن كل شيء فيه قد تراخى فى همود من يريد أن ينام نوما أبديا . ولم يلبث أن عادت إليه حالة التعادل وبدأ منظره منظر رجل نائم . ولا شيء أكثر من ذلك .

ثم قالت فى نفسها : فى اللحظة التى سيفتح فيها عينيه سأعرف كل شيء .. ومن خلال عينيه الزرقاوين سارى ما بداخل صدره كما كنت أفعل من قبل . فليس هذا القلب المغموس فى السائل أكثر من مرآة كسرت وإذا وضعت مكانها مرآة عاد المنظر كما كان طبيعيا حيا .

\* \* \*

وانفتحت عيناه لأول مرة مثل نافذتين تطلان على القلب الجديد . وسجلت مشاعر الرجل — لأول مرة فى وضعه الطارىء — إحدى لمسات الحب . وكما تضىء السماء بنور القمر أضواء وجهه فى الفراش . وبحركة آلية صرفة لمس ذقنه المحلوق وهو يتسم . ثم همس باسمها .. وأغمض عينيه لينام مرة أخرى والابتسامة على شفثيه تتلاشى شيئا فشيئا . وكانت تحمل من المودة كل ما حملته الابتسامات القديمة ولولا منغصات من ألم جسمانى يعاينه حتى الآن لكانت أكثر إشراقا . ثم رأت مخايل حلم سعيد حول أهدايه المسبلة بعد أن نطق باسمها وأغمض عينيه . وعندئذ لاحت منها التفاتة إلى قلبه القديم المنفوع فى السائل الطبى . وتغيرت نظرتها إليه .. رأت الحب



ادق وأشمل : ليس القلب ( كعضو ) وحده مسكنا له ولكن  
 الإنسان كله كبنيان . والطبيعة أيضا مضافة إليه .. بدليل أن  
 المعدة تمرض بسبب الحب فتطرد الطعام .. والجسم كله  
 يمرض . والطبيعة أيضا .. يفقد الشجر خضرته والبحر رونقه  
 والماس بريقه ..

وعندئذ نهضت لتقف أمام المرأة لتسوى شعرها . وفجأة رأت  
 محاسنها كما تراها امرأة غريبة منفصلة عنها . وفي المرأة أغصان  
 الشجر تتلاعب وبرج الكنيسة ينطح السماء . وبدا لها منظرها  
 أجمل مما رأت فعلا .. عندما رأت الإنسان في إطار الطبيعة .  
 وهنا أدركت أن كل شيء في أجسامنا إن هو إلا قطعة من هذه  
 الطبيعة . فنحن من الأرض وإلى الأرض . حتى حبات عيوننا أصلها  
 من طين .. وما الطين إلا الأرض .. وما الأرض إلا مجموعة العناصر  
 التي تتكون منها أجسامنا ..

\* \* \*

وعاد الرجل ففتح عينيه مرة أخرى وقال في هذه المرة كلمتين :  
 « سوزان !! .. أنت هنا ؟! » .

ووضع يده على صدره وأغمض عينيه . كأنه يشير إلى قلبه .  
 كان صوته منخفضا جدا .. غليظا جدا .. كشيء مشروخ .  
 ولم تدر لماذا أحست فيه نبض رجولة . وذكرت فجأة أن في صدره  
 قلب فتاة . وعندئذ تبسمت . وذهبت إلى النافذة حيث أطلت

على الحديقة ، وهى تتصفح جرائد اليوم التى لم يكن لها من حديث إلا هذا الحدث .. اعتبار جسم الإنسان بقدرة العلم مجموعة من أجزاء . مثل السيارة والطيارة ، لا تعتبر حياتها منتهية إذا فسدت منها قطعة .. حتى ولو كانت المحرك .. ولو كانت القلب !!

ورأت فى الحديقة أمامها امرأة يتبعها كلب . ثم عربة محملة بلحم الخنازير . ثم تمثالا لأحد نوابغ الطب فى عصر مضى . كل هذا فى إطار واحد تحت عينيها الحائرتين وأمام عقلها الملىء بالتساؤلات .

وعندئذ تذكرت ما قاله الأطباء : من أن أنسب القلوب عملا فى صدر الإنسان إذا ما غير قلبه .. هو قلب الخنزير .

وجمع خيالها فتصورت رجلا وضعوا له قلب خنزير ومخ عبقرى كذلك النابغة المائل فى الحديقة تمثاله . فكيف يتعاونان معا ؟! ثم تصورت امرأة وضعوا لها قلب قردة وعيون غزال فماذا تصنع ؟! إنها ستقطع الطريق على المارة بنظراتها ومحاكاتها !. ثم تصورت قلوب القديسين حين تنقل إلى صدور الطغاة فى التاريخ وقلوب الشجعان حين تنقل إلى صدور الأذكاء الجبناء . وقلوب مشاهير المحبين فى العالم حين تنقل إلى صدور مجرمي الحروب .

\* \* \*

وعندئذ دخل أحد الأطباء وحياتها :  
 — مرحبا سوزان .. لقد كان يسأل عنك ..  
 — قبل العملية ؟!  
 — نعم ..  
 — المهم ما بعده يا دكتور ؟!  
 ونظرت إليه ففهم ما تعنى .. فتبسم وقال :  
 — هل تعرفين القيثارة يا سيدتى ؟  
 — نعم .. وأعزف عليها . وطالما عزفت عليها له فى لىالى  
 القمر ..

فزادت ابتسامته حتى تحولت ضحكة :  
 — المهم أن تعرفى أن الإنسان مثل القيثارة . فإذا كان حيا كان  
 قيثارة وأنغاما ، وإن كان ميتا كان قيثارة بلا أنغام ، وربما بلا أوتار  
 فذلك لا يهم إذ أنه لا قيمة لوتر لا يعزف .  
 ... الأنغام يا سيدتى تأتى بفعل فاعل .. شىء من الخارج  
 لكنه مكمل للإنسان ، والإنسان — حتى وهو نائم — قيثارة  
 تعزف لأنه يعمل عملا ما ويفكر فكرا ما فى أحلامه . بل إنه يتكلم  
 وهو تحت تأثير البنج . لذلك فأنا أعتقد أن الطبيعة التى حولنا إن  
 هى إلا امتداد للإنسان . وأنا أقصد بالطبيعة المجتمع والأرض  
 والسماء وما يراه الإنسان وما لا يراه . كل هذا امتداد له . ولذلك  
 يجب أن تعلمى أن لكل إنسان قلبين : قلب بمعنى عضو وقلب  
 بمعنى أوسع من ذلك ..

تصورى دائما القيثارة بأنغامها . فهذا هو الإنسان . فلا يهم  
إذن إن وضعنا فى صدره قلب امرأة أو قلب رجل أو قلب خنزير ؛  
لأننا لو ركبنا له عيني خصان لرأى الدنيا من جديد بكل  
امتداداته .. فهو ليس داخل أجهزته طيبا . الإنسان كائن أكثر  
امتدادا من الجهاز الهضمي والتنفسي والعصبى وغيرها .. إذن ..  
فاطمثنى ..

قالت سوزان فى ابتسامة مشرقة بالأمل :

— إذن فأنا ساكنة القلب الجديد ؟!

فرد مداعبا :

— نعم .. وقد تأكدنا من ذلك عند عملية النقل فقد شممنا

العطر الذى يفوح منك وكأنه يفوح من دمه ..



الأعواد المختارة

يد أبى توقظنى من النوم فى ليلة خريف باردة . رأيت كل شىء من حولى وأنا أفرك عيني بيدي يدل على أنه قد سحب قهرا من الهجوع .. حتى مصباح الجاز الذى أعادت أمى إشعاله . وكان أبى يرتدى ملابس الحقل فى عجلة ملهوفة ويسأل وهو يلبس عن بندقيته التى يصطحبها عادة إذا ما خرج أثناء الليل ..

كان المنظر بالنسبة إلى لا يزال حلما .. لماذا أوقظ فى مثل هذه الساعة ؟! ولماذا يبدو الاهتمام على أبى وأمى هكذا ؟! ثم هو يطلب بندقيته وقلما كنت أراه يحملها . فسألت نفسى : « هل أبى خائف ؟! » وكان الجواب : « نعم » ؛ لأن كل شىء فيه يدل على الخوف . وعند ذلك وبطريقة تلقائية أحسست أن الخوف يملأ كيانى لا لشيء إلا لأنى رأيت أبى خائفا .

ولفت أمى على رأسى « كوفية » من القطن لتؤمننى برد الليل وفعل أبى كذلك . ثم أمسكنى فى يده .. كفى فى كفه . وأحسست بضغط كفه على كفى بعنف وكأنما كان ذلك إيذانا بالسير إلى الحقل . فسألت أبى بصوت ملهوف :

— إلى أين ؟..

فضغط على يدي كأن فيها فمى ، وهمس :

— هس ..

وقابلنا الليل عند مدخل الحارة ، ليل نوفمبر فى الريف . بعباءته  
السوداء الندية . وهمسه فى أوراق الشجر وحقول الذرة . والمياه  
فيه تعكس السماء فى قدرة تجعل الضفادع والنجوم جنباً إلى  
جنب .. ووحوت ..

فسأل أبى فى همس :

— أنت بردان ؟!

قلت :

— نعم ..

وكنت فى الحقيقة أوحى من الخوف ..

ولم يستأنف أبى الحديث معى .. تركنى نهبا لوساوس  
لا تحصى وأنا الصبى الذى لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر ..  
كان سلاحه تحت إبطه وخطاه سريعة واسعة . أحسست أنه  
يريد أن يطوى الطريق والزمن . وخطاى القصيرة لا تستطيع أن تدرك  
خطاه لذلك وجدتني مضطرا إلى أن أهول لكى أسير معه جنباً  
لجنب ..

والطريق الذى نمشى عليه ضيق مفروش بالنجيل . لم تستطع  
المواشى السائبة أن تعريه من ثوبه الكثيف الأخضر . وهو لذلك يكتم  
وقع الأقدام .. أعرفه فى النهار . بين حقلين مزروعين بالذرة وعلى  
جانبه أعواد ناضجة والمياه فى قناتين ضيقتين على جافتيه .  
والشمس حين تبعث أشعتها عليه متخللة السحاب الأبيض تبدو

مثل طفل سماوى يلهو على الأرض ثم ينسحب ..  
 لكن ما باله بالليل هكذا ؟! .. إنه غير الذى أعرفه بالنهار . إنه  
 مثل أبى .. ليس هو الرجل الذى أراه بالحقل تحت الشمس :  
 يسيل العرق على صدره ويبرق على زنديه ووجهه . إنه رجل آخر ..  
 غريب ..

\* \* \*

وفجأة وقف أبى ..  
 خرخشت أوراق الذرة من أمامنا . ورأينا شبحا يعبر من الشمال  
 إلى الجنوب . عبر الطريق الضيق والقنوات ...  
 وتأهب أبى .. ولدت به .. فدفعنى عنه . لكن كل شىء عاد  
 إلى ما كان عليه بسرعة كأن الليل قد نطق بكلمة واحدة وسكت  
 عائدا إلى الصمت فلم يكن ذلك الشبح الذى عبر سوى أحد  
 الثعالب ..  
 وقال أبى يهمس ليطمئننى : ثعلب لا خوف منه .: عليه لعنة  
 الله ..

وكنت أعرف أن الثعلب لا يفترس الرجال بل يخافهم ويلجأ إلى  
 الحيلة لكننا كنا فى حالة ترقب فلم تكن الحركات فى وزنها  
 الطبيعى ..

\* \* \*





ورأينا النجوم مرة أخرى

وفجأة رأيت أبي يلطمني على وجهي وهو يقول لي :

— هل جنت ؟!

وفكرت في سؤاله فعلا وكدت أقول : نعم إنني جنت . فما الذي حدث ؟! سمعت صوتا يرتفع فجأة وهو يغني : « يا ليل يا عين » ..

ولم تكتب لأنغامه أن تتم . لأن هذا الصوت كان صادرا مني ولأن أبي أدركني فأسكتني بأن لطمني .

وعجبت لماذا أغنى .. وما لبثت أن وجدت الجواب : فقد غنيت حقا ليل غناء الوثنين الذين يرقصون للأخطار . ففي اللحظة التي نطقت فيها بلا وعي بغنائى كان الليل قد بسط على سلطانه بكل ما فيه من صمم وبكم وفعلت ظلمته في نفسي ما يفعله القمر في مياه البحر .

على أن مخاوفي قد قلت . وشيئا فشيئا أحسست أن الخطر شيء يمكن ملاقاته ما دامت النفس قد وظنت على ذلك . بدليل أن وطأة البرد قد خف ملمسها على جسمي بعد أن غادرت الدفء بربع ساعة . وكان أبي « يزمر » . كنت أسمع صوته الحبيس في صدره ولست أدري لماذا . نحيل إلى أن أبي يكتم نداء أو تهليلا . وكان عوده القصير وهو يمشي في الظلام إلى جانبي أشبه بالقدر المتسلل . وأخيرا ضجرت فعدت أسأله في صبر نافذ :

— إلى أين يا أبي ؟

. فأجاب وهو في حالة مثل حالتى :

— إلى حقلنا الجنوبي ... إلى أى مكان تظن أننا ذاهبون الآن  
يا غبى !؟ ..

وابتلعت ريقى . وتلاشت آخر عباراته فى ضوضاء الحقول  
والهواء . وعاد السكون حتى كدت أسمع طنينه فى أذنى تحت  
الكوفية .

وكنا ساعثذ قد وصلنا إلى طريق فرعى آخر . كمادة أهل  
الريف تجنبنا للأخطار فهم يتحرون أن يصلوا إلى غايتهم فى الليل  
من الطرق الجانبية أو من غير طرق . يمشون فى الحقول التى ربما  
كانت مظلمة بالزرع وهم يعرفون طريقهم كالملاحين فى البحر .  
بين عيني كل منهم ( بوصلة ) وفى قلب كل منهم حذر ..  
وكان أبى جديرا بهذا الموقف فى هذه الليلة . فقد كان خائفا  
من أن يكون قد استدرج لكمين . لذلك لطمنى عندما غنيت .

\* \* \*

ورأينا السماء مرة أخرى بعدما قطعنا طريقنا هذا .. حملقت فى  
النجوم بطريقة الظمان ينظر إلى الماء فقد كنت مشتاقا إلى الجو  
المكشوف ..

ورأيت أبى أقل طمأنينة فقد كان يكثر من التلفت ويسرع فى  
خطاه . وبعد ذلك دلفنا إلى حقل عرفت على الرغم من الظلام

أنه حقلنا وكنا نمشي فيه من ناحية ليس عليها ترعة متجهين إلى  
 الناحية الأخرى حيث تقع الترعة التي تسقى ذلك الحقل ..  
 وبعد أن قطعنا عدة أمتار داخل أرضنا قال لى أبى وصوته يحمل  
 مزيجاً عجيباً من النبرات . فيها الحماسة والاندفاع والتوتر والرضا  
 بما سيقع مقديما . قال أبى :

— اسمع .. قد يحدث أن نجد ناسا عند رأس حقلنا هناك  
 عند الترعة أو على مقربة منها . وقد تحدث أشياء لا تخطر على  
 بالك . وكل ما يهم عمله هو أنه إذا حدث ما لم يخطر على بالك  
 أن تسد فتحة الماء إن كانت مفتوحة حتى لا تغرق الأرض .  
 وتنهد أبى .. وأمرنى أن أجلس القرفصاء وفعل مثلى ثم بدأنا  
 نقطع الطريق إلى نهاية الحقل بهذه الطريقة . ففهمت أن أبى  
 لا يريد أن يكون هدفاً ولا أن تراه عين .

وهمس لى : إن رأينا ماء يلمع على أرض الحقل فمعنى ذلك  
 أنهم أطلقوا الماء ليتلفوا الزرع النبات وأخرج أنا إليهم . إذن  
 فلتحجز أنت الماء عن الأرض واتركنى أنا أتصرف إذا حدث شيء  
 آخر ، وإذا لم تر ماء يلمع على أرض الحقل كان هناك خطر واحد  
 هو خطر خروجى إليهم فى مثل هذه الساعة وهذا أقل ضرراً ..  
 قلت وأنا أزحف على أرض حقلى : أبى يرى كل شيء حوله  
 أعظم قيمة منه شخصياً وإلا ما خرج من دفء الحجرة مخاطراً



هكذا . ثم سألت نفسي : لماذا لم يستعن بأحد إخوته قبل أن يخرج .. هل يرانى أهلا لتحمل المسؤولية ؟!

\* \* \*

همس أبى بفرحة شديدة :

— ولد .. ولد .. ليس هنا ماء يلعب . إنها خدعة .. فتحة الماء مقفلة والزرع سليم .. الأرض سوداء فى لون أرض الجيران . وسكت كعادة أهل الريف وتلفت . ونظر إلى السماء وشرع بندقيته وأطلق فى الليل طلقة مزقت سكونه . كأن أبى يريد أن يقول : « نحن هنا .. » .

وانتظرنا . كانت آذاننا شديدة التوقع لأن تسمع طلقة أخرى من مكان ما رداً على طلقة أبى . وكانت الثوانى تمر فى ثقل لا يوصف كأن لها أجنحة وطنينا ووزنا مثل وزن الجبال . وجلس أبى بعد ذلك تماماً على الأرض ورأيته يداعب يديه المضطربة أعواد الزرع النامية كأنه يتحسس أطفالاً نجوا من الغرق وبدأت على وجوههم فرحة النجاة مع بقية من دموع الخوف .

ولست أدري لماذا أحسست أن أبى قريب إلى قلبى جداً فى هذه الساعة . شعرت كأنه انتصر على كل شيء حتى على ظلام الليل وأخذت شيئاً فشيئاً أشعر بشعور جديد . شعور غير الخائف أو إحساس القادرين على عمل أى شيء يطلب منهم . وأن هذه العصا القصيرة التى أحملها ليست أقل قوة من رصاص البندقية .

لقد بعث أبى إلى قلبى شيئاً فشيئاً إحساساً بالرجولة والقدرة  
على حمل ما هو أقوى من قواى .

\* \* \*

ولم نلبث أن أخذنا طريقنا عائدين إلى الدار ولكن ليس من  
نفس الطريق الذى سلكناه من قبل . وبدأ الليل أقل ضراوة والطريق  
أقصر مما كان قبلاً .

وعند باب الدار سمعت أمى وقع خطواتنا ففتحت فى صمت  
ذلك الباب الذى كانت واقفة وراءه منذ خروجنا . وكان قلبها  
يخفق . بدا ذلك من لهجة كلامها المتعثرة ؛ لأنها حين سمعت  
طلقة البندقية لم تدر من أى يد أطلقت . ولكن سيادة الصمت بعد  
الطلقة الوحيدة جعلتها ترجح أنها من يد أبى خصوصاً لأنها كانت  
عالية .. أى أن هدفها كان إعلان الحراسة .

ودخلنا كلنا . وجلس أبى يسب ويشتم ذلك الذى أخرجه فى  
مثل هذه الساعة . كانت نظرتة للأمر سليمة . فقد وقع بينه منذ يوم  
واحد شجار مع أحد الجيران فى الحقل وفى هذه الليلة أرسل من  
دق على باب دارنا دقات مستعجلة فنهض أبى وأمى فى عجلة  
وذعر فلما سألوا عن الطارق قال بصوت غير واضح :

— أنا محمد .. حقلكم الجنوبى أطلق عليه الماء ليغرق ..  
ولما فتح الباب لم يجدوا أحداً إلا الظلام والسكون .. ولم يعرفوا  
شخصية المنادى . ثم ما أكثر اسم محمد فى القرية ..

وكان العمل يبدو وكأنه استدراج لكنه أيضا كان امتحانا لرجولة  
أبى . فقد كان موقنا أن الذى نادى عليهم فى مثل هذه الساعة  
يكمن الآن فى مكان ما ليرى ما سيحدث ..

وجعل أبى وأمى يفكران : « إذا كان ما قيل صحيحا فإن  
الحقل سيغرق ، وإذا كان ما قيل غير صحيح فإن الكرامة  
ستغرق » .

وعند ذلك أيقظانى وخرجت أنا وأبى فى الرحلة التى مرت بنا .  
لكننا عندما عدنا كنا أثقل وزنا وأعظم قيمة . ولم يلبث أبى أن  
أخرج من جيبه عودا أخضر قدمه لأمى فى نور المصباح المتعب  
قائلا لها :

— انظرى .. لقد أصبحت البطاطس فى هذا الطول .. كنت  
خائفا عليها أن تغرق ..

وضحك فى سعادة قبطان نجا كل ركابه من عاصفة .

\* \* \*

عند شروق الشمس تماما كنت واقفا على رأس ذلك الحقل .  
كانت خيوطها الذهبية تنساب بين الخطوط وفوق الخضرة كذهب  
قد صهر حديثا . والترعة من ورائى مليئة بالماء وفتحة الرى محكمة  
تماما . وكنت أتخيل حوادث البارحة . وهمساتنا وطلقات  
الرصاص والأشباح التى هرولت فى كل فج .. كنت أتخيل كل  
ذلك وأحاول أن أرى له أثرا . لكن نفسى لم تجد شيئا من ذلك .

كأن النهار قد مسح بيده البيضاء على تلك الحوادث ففركت عيني  
بكفى وأنا فى تمام اليقظة وأنا أقول « لعلّى فى حلم » . وفجأة  
وجدتنى أغنى فى النهار تلك الأغنية التى قطعها أبى علىّ ليلة  
البارحة ونحن فى الطريق الضيق وجدتنى أقول والشمس طالعة :  
« يا ليل .. يا ليل .. » !!



الفد الباسم

كان يحدثنى كثيرا عن شيء لا أعرف اسمه وكنت أحاول أن أشاركه الحديث فيه بطريقة غلام يعتمد على خياله وحده لأنه ليس هناك ظل من الحقيقة يربطنى بما يصفه لى .

وفى الفترة التى استبد به هذا الخاطر الخبيث كنت خائفا من لقاءه . فعندما دق جرس الحصّة الأخيرة تلكأت فى الفصل أخيرا حتى خرج هو منه ثم لذت بنهاية حديقة المدرسة حيث تنتشر أشجار الرمان ذات الفروع اللينة والأوراق الغزيرة وحيث يمكننى أن أتوارى فيها .

ولم يكن معى حقيبة للكتب كالتى يملكها هو ، ذات الجلد الأنيق والأقفال المعدنية التى تشبه الفضة . بل كنت أضع كتبى التى أحاول دائما المحافظة على نظافتها فى كيس من ( المشمع ) أحمله فى حذر وخجل .. وأنا الآن مختبئ تحت شجرة الرمان حاملا إياه تحت إبطى مشغولا بالنظر إلى تلك الأزهار النارية الحمراء . ورائحة الأرض المروية والخضرة عموما . ونكهة الجرجير الذى تغمر به حديقة المدرسة— تملأ الجو من حولى ...

ولم أدر كم من الزمن وقفت لكننى انتبهت فجأة على صوت أبواب تغلق فأدركت لفورى أن العمال فى المدرسة على وشك

أن ينتهوا من أعمالهم فهممت أن أتحرك للخروج ولكننى فوجئت  
 بيد تشدنى من ساقى وبضحكة منتصرة يريد صاحبها أن يقول :  
 هأنذا قد عثرت عليك .

وحاولت أن أضحك حتى لا أكشف أمر نفسى . ورأيته هو ..  
 هو نفسه التلميذ الذى حاولت الاختباء منه ( حمودة ) جالسا على  
 حقيبته الجلدية النفيسة ذات الأقفال الفضية غير مراعى رطوبة الأرض  
 من تحتها ولا الأضرار التى تنتج لها من ذلك ..

وعندما انتهى ضحكنا سمعنا أحد العمال يستحثنا على  
 الخروج . وسرنا .. كيس المشمع بكتبى تحت إبطى وحقيبته  
 الجميلة تترنح فى يده .

وكانت دورنا بعيدة عن المدرسة إذ كنا من قرية صغيرة تعداد  
 أهلها لا يسمح لها أن يكون بها مدرسة ولذلك كنا نذهب إلى  
 هذه المدرسة فى القرية الأخرى ..

وكان علينا لأجل أن نصل إلى قريتنا أن نسير فى طرقات ضيقة  
 بين المزارع . فى طريقنا حدائق وحظائر ومخازن زراعية مما يتيح  
 لنا فى بعض الأحيان أن نلعب فى الطريق شيئا ما .

وكنت أتمنى على الله أن يتحدث ( حمودة ) عن أى شىء أو أن  
 يلعب أى لعبة أثناء سيرنا . لكن .. كنت أدعو الله فى سرى ألا  
 يعود للحديث عن هذه الأشياء التى يفاخر بها وعن المكان الذى  
 يحتفظون بها فيه وعن أنواعها وألوانها لأننى فى الحقيقة كنت قد

استنفدت كل مدخراتي من الخيال ولم يبق بعد ذلك إلا أن أنكشف .

ورأيت ونحن في الطريق — ما دمت أنني لم أستطع الفرار منه — أن خير وسيلة للدفاع عن نفسي في هذا اليوم هو الهجوم عليه .. على ( حمودة ) وكان معنى هجومي عليه هو أن أثير همومه ومخاوفه من أشياء أعرفها . وعندئذ .. فإنه سينشغل بهومه هو عن إثارة همومي .. فقلت له فجأة ونحن في الطريق :

— هل تعلم ؟

فسأل بلهفة :

— بماذا ؟

فقلت له :

— عندنا امتحان تجربة في الحساب غدا . وسنجلس في الفصل بطريقة مبتكرة فيكون في المربع الواحد أربعة تلاميذ . اثنان من الصف السادس كل واحد منهما في زاوية المربع . واثنان من الصف الرابع كل واحد منهما في الزاويتين الأخريين ( وسكت قليلا ثم أردفت ) وهي طريقة تضمن سلامة الامتحان .. ( وهددت بإصبعي شخصا مجهولا يحاول الغش ) .

فسرح حمودة ببصره وأخذ يطوح حقيبة كتبه بسرعة أكثر من سرعة مشينا مما يدل على أنه في اضطراب . ثم بلع ريقه وعاد يسأل :



— لكن .. متى قال لكم مدرس الحساب هذا الخبر !؟  
فأجبتة :

— عندما كنت عند الحكيم لتسعف لك إصبعك الذى  
جرحه ( موسى ) وأنت تبرى القلم للمرة الثالثة فى حصة واحدة .  
فتمتم بكلام لا أعرفه . ثم استمررنا فى سيرنا . حتى إذا ما مررنا  
على إحدى الحظائر أمسك يدي وأشار إلى حصان واقف بالقرب  
من بابها وأخذ يشرح لى كيف أن والده عندما يركب مثل هذا  
الحصان يركب بمهارة ، فقد امتطاه مرة بلا سرج وركض به يسابق  
الريخ ويلعب بالرمح ولم يسقط من فوقه .  
ووقفت أسمع . مذهولا نوعا . ومصدقا حيناً ، ومكذبا  
أحيانا .

غير أننى كنت أشعر أنه يتكلم كمن يباهى بشيء لا يملكه هو  
شخصيا معزياً نفسه عن فشل منتظر فى امتحان التجربة الذى  
كنت دائما من المتفوقين فيه .  
ولما آن له أن يتم محاضرتة عن طريقة أييه فى ركوب الخيل ،  
هذه الطريقة المبالغ فيها والتى كنت أحس الكذب يملأ  
حواشيها .

لما أتم محاضرتة . استأنفنا سيرنا .. الصمت يظللنا وهدوء  
الحقول شامل . لكننى كنت قلقا .. كنت قد سئمت مجاراته فى  
أشياء أجهلها تماما ، وفى طرفة عين قال فجأة وكأنه تذكر شيئا :  
— اسمع يا كمال .. هل عندكم ( خزنة ) فى البيت !؟

فقل له ببساطة شديدة :

— نعم عندنا ..

فسألنى :

— وأين تحتفظون بها ؟

فأجبت فى بساطة أبسط :

— فوق السطوح !

وعندئذ انفجر حمودة ضاحكا ، ولكى يفتت أعصابى أضاف إلى ضحكاته الحقيقية النابعة من قلبه ضحكات تمثيلية ساعدته على تدفق ضحكاته .. ضحكات جديدة من أعماق صدره حتى ضقت به فلكمته فى كتفه وقد امتلأت عينى بالدموع وسألته :

— ما الذى أضحكك فى كلامى ؟ .. نعم .. إنها فوق السطوح مثل ما يفعل كل الناس ..

وعندئذ استرد ( حمودة ) أنفاسه وقال لى وهو يلهث فى هدوء :

— حسن .. ماذا تضعون فيها ؟

فسكت ثم أجبت على استحياء :

— نضع فيها ال .. اللبن .. والخبز والمخللات ..

فعاد ( حمودة ) إلى ما كان فيه . تسلمه ضحكة إلى ضحكة ، ورمى على الأرض بحقيبة الكتب الأنيقة فتلوّثت بالتراب وذلك لكى يخلى كفيه ليصفق عجباً ، وظللت واقفا إلى جواره مشدوها نحجلا حائرا ، أتمنى أن أعرف سر ذلك العالم البراق

الذى يتحدث عنه ذلك التلميذ الذى لا يعرف شيئاً إلا المفاخرة بما عندهم ، وهذه هى الوسيلة التى بها يستطيع أن يعكس صفو المجتهدين مثل المتفوقين ويجعلهم يحسون فى كثير من الأحيان بالخنوع لكننى سارعت وقلت له :

— كيف تضحك وأنت ستدخل الامتحان غداً ولا تعرف شيئاً عن الربح المركب .. ولا حساب الزمن ؟!

فأقبل علىّ وأمسكنى من كتفى الاثنتين وهزّنى بعنف . أحسست أنه يضمّر لى شراً ، وأن طاقته على الرغم من ضحكاته قد نفذت قبل طاقتى لأننى كنت يومئذ أستمد طاقتى من إحساس حقيقى أما هو فقد كان يستمدّها من إحساس زائف .

ثم تركنى وقال لى :

— إن ( الخزنة ) أيها الجاهل مصنوعة من الفولاذ .. وفيها نضع

ال ..

\*\*\*

وتركته وجريت ..

لم أسمع لأذنى أن تسمع شيئاً مما سيقول ، كنت قد مللت كلامه وانتهيت من ذلك . نعم . وكنت قد سئمت الحديث عن أشياء لا أعرفها . خيالى عجز فى هذه اللحظة وقبلها بكثير عن مجاراته فى العالم البراق الذى يعرف الكثير عنه .

تركته وجريت فلم يجر ورائى بل وقف ينظر مذهولاً ، وأخذ ينادينى باسمى كأنه خائف أن يمشى وحده ولو أنه لا يحب صحبتى بإخلاص . وكنت أحدد موقعه على الطريق بمدى

قوة الصوت على المسافات حتى صار يصل إليّ وكأنه صدى  
وعندئذ أبطأت في سيرى حتى وصلت إلى الدار .

\* \* \*

دخلت على أمى منهكا لاهثا معفر الوجه يبدو على الذل  
والانكسار وعندئذ ضربت صدرها ثم سألتنى عن الخبر فلأقل شيئا  
بل لذت بالصمت ثم عدت فسألتها :  
— أين الخزنة التى نملكها يا أمى ؟  
فقربت وجهها من وجهى تحمق فى كأنها تريد أن ترى من  
ملامي شيئا خفيا ثم سألت فى دهشة :  
— أه ..؟! ماذا تقول ؟!.. الخزنة يا بنى فوق السطوح !  
فصرخت فيها كالمحموم :  
— وماذا تضعون فيها ؟!  
فأجابت بصوت بلغ من الخفوت والدهشة إلى حد أنه كاد  
يصير حلما :

— فيها اللبن والخبز والمخللات .. ماذا بك ؟!  
فشددت شعر رأسى وبعثرت الكتب من كيسها المشمع ،  
وعندئذ أخذت أمى — بهدوء متبتل — تجمع الكتب من على  
الأرض وتقبلها كتابا كتابا وتعيدها إلى مكانها من الكيس . كما  
يفعل الريفى بالخبز إذا ما سقط منه إلى الأرض وهى فى ذلك كله  
تستغفر الله . وعندئذ أفقت مما أصابنى وقلت لها فى أسى وهدوء :  
— إن حمودة يحدثنى دائما عن أشياء تخرجنى وتقلق خاطرى .





المجهرات .. كل شيء يلمع حتى ولو كان « عقلا »

يا أمى . إنه يحدثنى عن خزنة عندهم ليست مبنية من الطين  
ومسقوفة بالخشب فوق السطوح بل مصنوعة من الفولاذ ومثبتة فى  
الحائط ..

فتحت أمى فمها ثم قالت :  
— ماذا أيضا ؟ .. أكمل حديثك .

فقلت :

— وهم لا يضعون فيها اللبن والخبز والمخللات يا أمى بل  
يضعون فيها ال .. المجوهرات ! ..

نطقت الكلمة التى طالما عذبنى بها حمودة والتى عجز خيالى  
عن مجاراته فى أوصافها ومعرفة حدود عالمها . عالمها الذى  
عرفت شيئا عنه فيما بعد الذى يقبس أنواره من ألوان الطيف .  
ويجعل المرأة أكثر لينا والرجل أكثر ضعفا .. قلت الكلمة لأمى  
واسترحت وألقيت الحمل على كاهل أقوى من كاهلى ..  
ثم سكت وأطرقت . ولم ترد على أمى . وساد بيننا صمت .  
لم أر وجهها لأننى كنت خائفا من النظر إليها .. كنت خائفا أن  
تكون المجوهرات التى يحدثنى عنها حمودة شيئا يعرفه كل الناس  
إلا أنا . فخجلت من جهلى . لكن يد أمى امتدت إلى وكأنها  
توقظنى وقالت لى وعيناها نصف مغمضتين :

— اسمع يا بنى .. الذى قاله لك حمودة حق . فهم ناس  
يملكون هذه الأشياء ..

فقلت لها :

— لكننى لا أعرف المجوهرات هذه ..

فالت ضاحكة :

— أشياء تتحلى بها أمه لكنها ليست ضرورية لكل امرأة . وماذا يضايقك فى ذلك ؟!

قلت متخلصا من بقية أشجاني :

— كلما تفوقت عليه فى علم من العلوم تحدث لى عن مجوهرات أمه ثم سألتنى عن مجوهراتك فأروغ ولا أجيب حتى سئمت .

فقلت أُمى فى هدوء وابتسام كأنها ترقينى :

— لا تحزن .. يظهر أنه كان من حقى أن أنبهك . لكن لا بأس : فإذا سألك مرة أخرى عن ( الخزنة والمجوهرات ) فقل له :

إن عندنا منها لكن أبى وأُمى دفناها فى الأرض على بعد بعيد ولن نصل إليها نحن الأبناء أو نعرف ما فيها إلا بعد سنين ... أى عندما نصبح شبانا ..

وإذا ما سألك عن المجوهرات فقل له : إنها كل شيء يلمع حتى ولو كان ( عقلا ) ، لكن مجوهرات العقول زينة ومنفعة لصاحبها وللناس . أما المجوهرات الأخرى فليست إلا لشخص واحد وقد يكون ضارا .

وقل له : إن ( الخبز ) أشرف من ( الماس ) لأن الطريق إلى الخبز مستقيم أما الطريق إلى الماس فربما كان معوجا .

وقل له : بعد بضع سنين نرى من منا أحق بأن يفاخر صاحبه .

هل تبكى ؟!

لا تبك أيها الطفل فالدموع مجوهرات أيضا خصوصا إذا  
 كانت من عيون غالية !  
 وقبلتني أمي فأخذت أشهق بالضحك وأحسست أنني صرت  
 رجلا وأنه لا شيء يهزمني . ما دمت أملك كتباً وعقلاً وعزيمة . وأن  
 المستقبل لهذه الأسلحة وليس للمجوهرات .  
 ووجدتني أبحث عن كيس المشمع بطريقة بحث الأم عن  
 مكان وليدها حتى إذا ما لمست يدي أخذته في حضني .

\* \* \*

وقد صدقت نبوءة أمي ..  
 صرنا شباباً وتغير حالنا إلى أحسن . فكأننا عثرنا في الأرض  
 على الخزنة الموعودة التي كانا قد أودعناها لنا حتى نصير كبارا .  
 أما حمودة فلم يعد وهو شاب ذلك الغلام ذا الحقيبة الأنيقة  
 ولكن صار ذلك الشاب الرث الهيئة المشتت البال المتحدث  
 دائما عن أمجاد قديمة ..



ليله شويه دفيه

حجرته التى ينام فيها هو وزوجته فى الطرف الأخير من الدار .  
 هنالك فى القسم القبلى . يفصلها عن الباب العمومى لدارهم  
 ساحة كبيرة فيها فرنان وعدة كوانين ومضخة للماء .. ثم دهليز  
 مسقوف طويل يؤدى إلى الباب العمومى . يحمل ذكريات من  
 مخاوف طفولته وكذلك ليلة عرسه أيام كان يقطعه جريا مسترشدا  
 بنور ضئيل يصل إليه من الساحة المكشوفة . ثم ... ليلة رأى  
 زوجته ( جميلة ) وهى تقطع فيه الخطوات الأولى نحو حياتها  
 وحياته . فانطلقت حولها من أفواه القرويات خمسون زغرودة مثل  
 أنشودة خمسين بلبل .

وها هى ذى ( جميلة ) متهيئة للنوم الآن فى قميص زاهى  
 اللون .. فى كفيها بقايا حناء وفى أنفاسها روائح لبان معطر . وعلى  
 مقربة منها طفلة شعرها منفوش أسود جففته حرارة الشمس من لعبها  
 تحتها فى النهار غالية عليه جدا لأنها بنته وتحمل اسم أمه  
 أيضا .

وفى حجرة ( جميلة ) يتعذر على أذن ما أن تسمع طرقة الباب  
 الخارجى اللهم إلا إذا كانت عالية جدا . لكن ذلك لم يكن يهم  
 الزوجين فإن أم الزوج تنام فى حجرة قريبة فى نهاية الدهليز فترى  
 كل داخل وتسمع كل طارق ..

والليلة شتوية دفيئة .. واليوم فى الدار هو يوم الخميس فالعشاء  
خبز لين وصينية من السمك فى الفرن الريفى . فبعد المغرب بقليل  
ملأت هذه الحجرة المعزولة روائح حية شهية بعضها صنعه الطعام  
وبعضها صنعه الدفء وبعضها صنعه النفس .. وفى البعض الأخير  
لذة وألم وخوف ..

وكانت جميلة تأكل وتحكى . تتكلم عن أشياء عادية تشغل  
امراة فلاح . وزوجها منصت . تجرى أفكاره مع أفكارها تارة  
وتنفصل عنها تارة أخرى .

وبعد أن انتهى العشاء لبست قميصا زاهى اللون بعد أن أزالته  
عن نفسها فى مكان آخر روائح الدقيق والطبخ والحلب وفاحت من  
أنفاسها رائحة اللبان العطرى وتركت ضفيريها المجدولتين  
مهملتين حتى النصف فبدت وعلى ظهرها طاقتان من الشعر  
الأسود الحالك تتحركان على القميص الزاهى كلما مشت  
جميلة .

إن فى نفسها شيئا تريد أن تعبر عنه . إنها تريد أن تعبر عن حبها  
وخوفها معا . تحس الآن بأن هذه الحجرة الصامتة تشي لها بضمير  
المستقبل . حيث قصة حب فى هدوء الجدول وصفاء مائه تمشي  
جنباً لجنب مع قصة خلاف مثل ثور ينطفئ ويفور .

وهى الآن تحس أن زوجها يكابد نفس الإحساس . يحمل حبا  
وخوفا ويعبر عنها بكلمات عجيبة .

« لقد صنعت لنا عشاء حلوا يا جميلة . كم أود أن أقبل يديك

أو أن آكل أصابعك الخمس ..!! هل تضحكين ؟ .. إننى لا أمزح .. إننى مشتاق أن أراك بلا أصابع .. كفاك قطعة واحدة مثل عروسة من القطن ..

وتنبعث منه قهقهة عالية كأنما يريد أن يخرجها من نطاق تأثير ما قال .. لكنه ما يلبث أن ينظر إلى عينيها .. حيث تقع الظلال على سوادهما المكحول . ونور الحجرة ضئيل يأتى من جانب .. وتلوح العينان فى سواد غير محدود من خلال وجهها الأبيض .

وتفكر الزوجة الصغيرة : « ماذا يريد هو أن يقول ؟! إنها تبرهن له عن حبها بكل لغة . ألم يكفه منها أنها استأنست كل كائن فى الدار ؟! .. الأبقار والغنم . لو يرى زوجها لغة عيون هذه الأرواح وهى داخلة عليها فى الحظيرة لتقدم وجبة السهرة .. وقرقرة الدجاج فى الأقفاص .. كل شئ ينمو عندها ويزيد ويتفاهم .. ومنذ شهرها الثانى بعد الزواج تجردت من حلاها الذهبية لتشتري قطعة من الأرض زرعها خضروات أحسن من الذهب .. وحتى الألبان زادت بعد أن دبّرتها .. ولو أن الأم لم تتخل عن هذا إلا بعد معركة باكية وخصام ووثام .

آه .. لكن .. آه ..!!

إنها تحس أنه يضرر شيئاً . ندبة صغيرة من الكره تبدو للعين على وجه حبه ولا تقع عليها عيناه إلا والحب فى ذروته . وهى فى هذه الليلة تراها غير واضحة شيئاً ما . وحاولت أن





كانت مثل نبات سقى حديثاً ..

تبعد نفسها عن هذه الخواطر فأخذت تشير ما كانا فيه من جديد  
حيث قالت له :

— لو كنت أستطيع أن أعيش بعيدا عنك بعض أيام ؟!  
فتنحنح وسأل :

— أين ؟! .. في بيت أهلك ؟! ..

— هل تظن أن ذلك ممكن .. أنا أقصد .. أن أدخل أحد  
المستشفيات لكي أجرى العملية التي أجّلناها .. وعند ذلك  
نتمكن من أن ..

— من أن ؟! من أى شيء ؟!

ضحك من أنفه ونظر إليها وهز رأسه . لم يجب عن سؤالها  
فورا فقد كان يفكر في أفكارها . فما الفرق بين بيته وبين أهلها ؟!  
لا شيء .. بل إنه من المحال إذا ما دب بينهما الخلاف أن تذهب  
إلى بيت أهلها .. شيء يؤلمها ويؤلمه ولا يترك جرح الخلاف  
يلتئم ..

وتنهّد . ثم ضحك ضحكة عالية . وكانت هي منكشّة على  
نفسها في هذه اللحظة مثل قطعة بيضاء شديدة التعلق بموطنها على  
الرغم من أن الناس فيه حتى ولو كانوا أطفالا مشاكسون يسببون لها  
متاعب .

وبدا للزوج أن يخرج من الحجرة ويعود .. أحس أنه في حاجة  
لأن ينظر إلى الخارج .. أحس أنه مشتاق إلى حد العطش ليشم  
الهواء الطلق . إنه يحس بضيق في صدره يصاحبه حنين مبهم وقلق

وحب . ويحس بميل لا يقاوم نحو أن يبكيها ويحتضنها .. الاثنان معا ..

فخرج من الحجرة وأغلق وراءه الباب المصمت الثقيل ثم وقف في ساحة الدار .

كان أول ما فعله أن نظر في السماء .. فيها سحاب .. رمادى راكد متحد اللون . وليس هناك ثقب يطل منه نجم واحد . وغمرته لمحة طارئة تغمر كل إنسان فيها يحن إلى أن يجوس خلال المسكن الذى يؤويه . وعندئذ تحرك صوب الحظيرة .. فإذا المواشى راقدة فى سلام ينير مرقدتها مصباح قديم عتم السناج زجاجته . حتى الغنم . وبعض المواشى يجتر فى ارتياح وبعضها مسبل الأجفان هاجع . رؤوس ليس فيها « فكر » زمنها فقط هو لحظة الشعور بألم أو لذة .

وقدّم لبعضها علفا احتياطيا لأن الليل طويل ثم خرج . وما كاد يصل إلى ساحة الدار حتى سمع طرقة خفيفة على الباب الخارجى ليس ممكنا أن يسمعها لو أنه كان فى الحجرة هناك . مع جميلة .. وجميلة لم تسمعها مثله الآن ..

وعندئذ وجف قلبه فليس الوقت وقت ضيوف « ترى من هناك ؟! » ..

وظل واقفا عند باب الحظيرة فى الظلام حث يرى ولا يراه أحد .. وما لبث أن رأى أمه تحمل مصباحا وتهرع إلى الدهليز ثم سمع صرير الباب الخارجى وما لبث أن رأى امرأتين تعودان بالنور

إحداهما أمه والأخرى امرأة يحبها تماما ويعرفها تماما ..  
 دخلت المرأتان حجرة الأم وأقفل الباب وعاد السكون إلى الدار  
 والليل . لكن الزوج لم يزل في مكانه يسمع من ذاته ضجيجا عاليا  
 يبدد سكون الروح . ونظر إلى السماء المطموسة ثم خفض رأسه  
 وتنفس فإذا بحرارة أنفاسه تقع على أسفل عنقه فيحسها مثلما  
 يحس الخد الدموع .

ويبحث عن ريقه ثم ابتلعه . وأتاه وهو في مكانه صوت دجاجة  
 تقرقر في تلذذ بالهجوم . وعندئذ تذكر جميلة .. تلك التي  
 تجلس بانتظار عودته وراء هذا الباب المقفل الذي يشع من تحته  
 نور خفيف لا تراه العين إلا إذا حملت .

وعادت إليه صورتها بشكل أروع .. شكل ملائكي في شفوف  
 بيضاء .. طاهر محب باذل يمنح من يده ومن قلبه .. جدول رقيق  
 يتسرب مأوه لا يحس به أحد . لا أمواج ولا منحدرات .. مثل نور  
 العين نرى به الدنيا ولا نرى له شعاعا .. « آه » وتأوه .. حقا ..  
 أحس كأن شيئا ما يوجعه .. كأن ظهره على وشك أن ينشطر ..  
 وفاحت له وهو على مقربة من الباب في طريقه إليها .. إلى  
 جميلة .. رائحة لبان معطر .. بدائي من صمغ الغابة لكنه مع  
 أنفاسها يمنح رائحة ذات همس .. رائحة تتكلم بلغة الحب ..  
 تثرثر بكلمات بعضها تافه وبعضها عادي وبعضها حكيم .. من  
 قلب جميلة البكر الذي لم يعرف الحب إلا بعد ما دخلت عتبة  
 هذه الدار .. له .. وشقشقت حوله خمسون زغرودة مثل خمسين  
 طائرا .



كل هذا وهو فى طريقه إلى بابها لكأنما شحن فجأة وعلى غرة بحب سن السادسة عشرة وإن كان الليلة فى الثلاثين .. حب حزين راغب يقبل أطراف الأنامل ويركع ويناغى .. وتأوه من جديد . وتمنى بكل شعوره أن يدخل عليها فيجدها باسمة جالسة بانتظاره وقد زالت عن وجهها تلك العتمة العارضة التى ألقته فكرة راودتها .

وأقفل الباب وراءه بعنف كأنما خشى أن تدخل وراءه تلك التى قابلتها أمه .. تلك التى يحبها تماما ويعرفها تماما . وتمنى على الله ألا تطرق أمه عليه الباب لتخبره بقدموها .. فمن المحتمل أن تبيت عندهم ..

بدت له جميلة مثل أروع امرأة . كانت متكورة فى الفراش بلا غطاء ؛ لأن جو الحجرة دفىء . قذها المحدود أنهكه العمل . وفى معصمها لمعت عدة غوايش من قشرة الذهب استعاضت بها عن حلاها القديمة . لكن كان فى صمتها هدوء يكاد يصل إلى حد الخمود وخلف ظهرها نامت البنية الشعناء التى تحمل اسم أمه ذنا منها وجلس على مقربة من رأسها ثم هزها فرفعت وجهها إليه . لاحت له ابتسامة مستنيرة كأنها تنبؤ فحقق قلب الزوج وتذكر المرأة التى دخلت دارهم منذ لحظات ، ثم مالها أن تمدد إلى جوار زوجته وأخذ بلا مقدمات يقص عليها ذكريات من أجمل حوادث عمرهما المشترك ويد تمر على رأسها حتى أسقط المنديل وأخذ ملمس الشعر الناعم يتلاقى بطريقة الحركة مع كفه

« أنت إنسانة يا جميلة .. لا أدري لماذا حضرت إلى عيني صورتك وأنت تدفعين عود الحديد بين فكي الجمل وتضغطين عليه بقوة وتصرخين لكي يترك ساقى من بين أسنانه .. آه .. نعم .. لا أنسى .. ويومها كان سيفترسك فى الحقل لولا تجمع الناس .. نعم يا جميلة .. ربما لم أكافئك على كل ما تعملين كما تقولين .. نعم .. لكن ..!.. أحيانا يقول الناس أكثر مما يضمرون .. و .. أحيانا يضمرون أكثر مما يقولون .. نعم .. إننى أسمعك » .

ولم يلبث حديثهما أن خفت .. ثم أخذ يتقطع .. وشعر الزوج بلهفة من سيقم ليلة ثم يرتحل . وبدأت اللهفة والشوق يلونان أفعاله بألوان خطفت لب المرأة حتى وصلت إلى الحال التى يعجز فيها الناس عن أن يقولوا .. وعليهم أن يعبروا بالصمت .. وعلى سطح الدار فى دفء الحطب صباح ديك عدة مرات بقوة طائر يختال بريشه ومرح عين تحلم بنور النهار .. وفى هذه اللحظات كان الزوجان قد بدءا يستسلمان لنوم عله أن يجدد النشاط !!

وفى الصباح الباكر خرجت جميلة من حجرتها إلى أعمالها المعتادة فى الدار . وكانت فى ذلك اليوم أشبه بنبات سقى حديثا .. أنخضر ريان يميد مع النسيم ..

ومرت بساحة الدار فلقيت الأم .. حيتها بابتسامة وكلمة فلم ترد الأم . كان إعراضها فى نظر الزوجة شيئا بلا سبب

ولذلك حاولت ألا تفكر فيه . وبعد زمن ليس بالطويل دخلت على زوجها لتوقظه ..

كان الباب مفتوحا ونور النهار يملأ الحجرة التي لا شباك فيها ففرك الزوج عينيه وتلفت كأنه يتعرف على المكان الذي هو فيه ، وقابلته ابتسامة صبوح من فم جميلة لكنه أنكرها .. تجاهلها مثلما تجاهلت أمه التحية .. وظل راقدا على ظهره لا يتحرك .. تمطى وتأوه وعندئذ تحسست زوجته جبينه وسألته في رقة وشوق من تريد أن تشاركه الطعام :

— هل أجهز لك الفطور ؟

هتف بخشونة :

— لا !! ..

عجبت .. لا شيء يدعو إلى كل هذا .. ما الذي حدث ؟! إن ليلة شتوية دفيئة وحجرة مغلقة معدة كانت مسرحا لحبها طوال السهرة . وقد ظل يعدد لها مزاياها التي لم تكن تذكرها كأنها في حفلة تكريم ..

إنها لم تكن تدري أن الضرة الحبيبة هبطت عليها فجأة .. فمن حين لحين .. كل بضعة أشهر أو بضعة أسابيع .. كثيرا وقليلًا وبلا نظام وفي مواعيد غير معروفة تهبط عليها هذه الضرة الحبيبة فتعكر صفاءها ..

قالت لزوجها الذي كان لا يزال مستلقيا على ظهره ووجهه واجم كئيب :

— سعد .. مالك ؟ هل تشعر بتعب ؟ ..

— جدا ..

— ماذا يؤلمك ؟

— لا شيء .. جسمي كله .. سليم .. الذي يؤلمني شيء خارج جسمي يا جميلة !

أخذتها الدهشة فأنفرج فمها الصغير الذي بات طول الليل ورائحة اللبان تفوح من أنفاسه . ثم سألت في همس :  
— لست فاهمة شيئا يا سعد !

همهم .. ثم سكت .. وفرقع أصابعه وتمطى وتأوه .. كان يبدى عدم اهتمام قاتل .. وعندئذ وضعت الزوجة كفها على خدها واستسلمت للتفكير . ومرت لحظات صمت قال بعدها الزوج هازلا أو جادا :

— كان في بلدنا قديما عمدة يحكون عنه .. كان قاسيا جبارا .. ولم يكن يعيش له أولاد .. ولكي يعيش له ابن يرث أرضه وملكه تزوج من امرأة ثانية وبعد ذلك أخذ في الإنجاب من زوجتين لكنه مع ذلك لم يعيش له أولاد . فاعتقد أن دعاء الناس عليه هو سبب موت أولاده . لذلك كان كلما مات له ولد فرض الأحران على أهل القرية فلا خطبة ولا كتاب ولا قرآن ، ولو استطاع منع النساء من الولادة لفعل .

صرخت فيه بحدة واستعجال :

— ماذا تريد أن تقول ؟!

— أريد أن أقول إن أحزان بعض الناس قد تكون سببا في هدم



أفراح ناس آخرين .. هيا .. البسي ملابسك واذهبي إلسي دار  
أبيك .. وعليك أن تبقى هناك عند والدك وشقيقك حتى تعود  
أختي زوجة أخيك إلسي دار أبيك .. لا تبكي .. فإن أخاك طرد  
أختي . وهي نائمة حتى الآن في حجرة أمي .. وقبل أن تخرج إلسي  
ساحة الدار عليك أن تذهبي فإن دارنا كما تعلمين لا تتسع لكما  
معا . وليس هذا طبعا ذنبى كما تعلمين فقد حدث أيضا أن دار  
أبيك لم تسعك أنت وأختي ..

— آه .. رأيت ذلك على وجه أمك ..

رد بعدم مبالاة :

— لا تظلمي أمي فإنها فى هذا ليست وسيط شر . فلو أنها  
غير موجودة ما تغير الموقف كثيرا .. ما دام زواجنا قد تم بهذه  
الطريقة ..

نظرت إليه تسأل بعينيها : « لكن .. أأست تحبنى ؟! » ..  
فأجاب بعينه : « وماذا يفعل حبي ؟ إن الحب كثيرا ما  
يعجز !! » ثم رفع صوته :

— توكل على الله .. وحاولي أن تصلحى ما عندكم ليصلح  
ما عندنا ..

وضحك وضحك .. ثم بكى وبكى ..



السَّيْرِيَّانِ

كم تمنى أن يرى ابنه ضابطا من ضباط الشرطة ؟!.. ويوما ما تبسم من نفسه في شبه سخرية من هذه الأمنية لأنه كشفها .. فقد كان البارحة في مستشفى قصر العيني عند صديقه الممرض هناك ولما دار بينهما الحديث عن الأبناء سمعه يتمنى أن يكون ابنه طبيبا !!..

وتحسس « طلبة » عسكري الشرطة حزامه العريض على وسطه وهو راجع إلى الحجرة المشتركة التي يسكنها هو وآخر من زملائه . ووقع حذائه الغليظ على أرض الشارع يرسل إلى سمعه شيئا غليظا ..

ولم يدر لماذا أحس بحاجة شديدة إلى التأوه أو بميل إلى أن يلکم شيئا ..

وعبثا حاول أن يبحث عن السبب .. إنه مسافر اليوم ليقضى الليلة عند زوجته « أم نبيل » في « الراحة » التي تمنح له . وهي مقيمة في القرية على بعد خمسين كيلو من القاهرة . هربا من التكاليف . وطلبا للمعيشة المعقولة . وهو في مثل هذه المناسبات يشعر قبل السفر بجو مشحون بالغموض واللهفة والحب .. لكن .. ما باله في هذه المرة متضايقا يميل إلى التأوه أو إلى أن يلکم شيئا ؟!..



وأشعل سيجارة أعطاها له صديقه الممرض كان قد احتفظ بها  
 حرة بلا علبه فى أحد جيوبه ، وعندما نفت سحابة الدخان  
 وامتلاأت خياشيمه برائحته ، هز رأسه فى الحال كمن يوافق على  
 فكرة .. فقد عرف لماذا هو متضايق يميل إلى اللكم أو البكاء .  
 كان سر ذلك أن زميله فى السكن بات طول الليل يحكى له  
 حكاية سمعها فى إهمال أول الأمر ، ثم ما لبث أن انتبه .. ثم  
 ما لبث النوم أن طار من عينيه .. ثم سهر بقية الليل مفكرا ..  
 — تصور يا « طلبة » .. كنت أريد أن يكون أحسن منى ذلك  
 الولد الملعون .. تصور ..  
 — له رزق عند الله ..  
 فرد زميله بأسى :

— مفهوم يا طلبة مفهوم .. لكن .. عندما « عظمت » ذلك  
 الضابط ابن العشرين عاما والذي عيّن حديثا فى « قسمنا »  
 تصورت أنه ابنى .. آه يا طلبة .. لكن ابنى يا طلبة فى الخامسة  
 عشرة من العمر . بينه وبين هذا الضابط خمس سنوات فقط ..  
 ..

وانقطع صوت زميله ، وسكن الليل فظن « طلبة » أنه قد نام  
 من ثقل الهموم التى قد تكون أحيانا فى وزن كابوس يجر إلى عالم  
 متوسط بين الحياة والموت .. وعلى كل حال ليس نوما . ظن  
 طلبة ذلك فسرّح خاطره إلى مكان آخر ؛ وما كاد يفعل حتى  
 سمع إجهاش زميله بالبكاء وعندئذ جلس فى فراشه وصاح به فى

الظلام : « اخص عليك راجل ! » ..  
وتركه يكمل دموعه ، ليغسل همومه فلا فرق فى ذلك بين عين  
وعين ولا قلب وقلب . ولا عقل وعقل إن صح التعبير ..  
إنه يعرف أن ابن زميله هذا البالغ من العمر خمسة عشر عاما له  
مأساة تناسب سنه لكنها فظيعة بالنسبة للأب . وهذه المأساة أنه  
رسب فى امتحان القبول سنتين متواليتين فى القرية . وإنه بذلك  
بلغ خمسة عشر عاما . والضابط الذى يحييه هذا العسكرى ويرى  
فيه — وهما — ملامح من ابنه خصوصا فى العينين ، تخرج من  
كلية الشرطة وهو ابن عشرين .

ورأى « طلبة » القضية معقولة . لكن زميله عز عليه . إن  
رائحة احتراقه تفوح من فمه إذا ما تكلم .. وصوت بكائه نوع  
جديد من الولولة على غلام كبير قد .. غرق .. فى نهر الحياة .  
ورأى « طلبة » أن من واجبه أن يخفف عن زميله فقال له :  
— السعادة ليست فى شىء واحد . ربما كان بائع البطاطا  
الذى جررته بعربته اليوم « مخالفة » أسعد من هذا الشاب الذى  
تحسده .. أليس هذا من الجائز ؟! . عندئذ ضحك زميله من  
خلال الدموع قائلا :

— أضحككتى .. ذكّرتنى بذلك المهرج بائع البطاطا . فقد  
حايلنى لأتركه فلما لم أرض أخذ طرطورا من داخل العربة ولبسه  
وصار يترقص لى بكل شىء فيه وهو يقول : « مخالفة تفوت ولا  
حد يموت يا بو نبوت » .. لكن .. لو كان لهذا الرجل ولد عمره



کم تمنی اُن پری ابنه ضابطا ...

خمس عشرة عاما ورسب في امتحان القبول مرتين ، هل كان يفعل هذا ببال خال ؟!..

رد طلبة في سهوم .. الهم قد انتقل إلى قلبه شأن تضامن الإنسان مع مطلق الإنسان . ثم ما لبث أن تذكر شيئا هاما . لكنه قبل أن يسترسل في أفكاره قال لزميله :

— نم .. لا تقتل نفسك حزنا فأنت مريض بالسكر . كثير من الأولاد نيكى من أجلهم في أول العمر ونحن لا ندري أنهم سعداء .. من أجل هذا أحس طلبة أنه مهموم .. وهو الآن سائر في الشارع الرئيسى لكى يذهب إلى حجرته ليأخذ حقيبة السفر . سيقضى الليلة مع أم نبيل زوجته . والسفر فى الصيف جميل . سيسهران تحت النجوم لا بسقف فوقهما حيث ينامان هربا من الحر ..

وستفوح من « القلة » رائحة بخور وتفوح من « الحلة » رائحة توابل .. وينقص الدجاج الحى فى الدار واحدة .. ثم يخرج صخب القطار عن أفكاره .. وعاد فتمثل كل الصور التى عرضها عليه زميله فى الظلام ليلة أمس . وفجأة أحس أنه يجب أن يحزن .. نعم .. « حقيقة إن تنظيف الشوارع ليس أقل كثيرا فى نظر الصحة من العلاج فى المستشفيات لكن .. آه .. الفرق كبير » ..

وعندئذ لاح لخياله وجه «نبيل» ابنه . هو فى الثامنة من العمر الآن وفى السنة الثانية الابتدائية .. وأمه .. حلوة .. تنتظر عودته



بكل ما فى الأنثى من مهارة .. لكن « آه » وقلب كفيه ..  
 أحس أنه محاصر وأنه لا يدري ماذا يصنع . وتذكر العمارات  
 الشاهقة التى ذهل لها أول ما رآها فى القاهرة ونظر إلى الواقفين على  
 « السقالات » بإعجاب لكنه الآن يرى كل هذا باطلا .. فبناء  
 أمثال : « نبيل » و « صالح » .. و « بشينة » أصبح هو الذى  
 يدعو إلى التأمل .. أشياء نبنيتها ونحن واقفون على الأرض أو  
 جالسون .. وهذه هى التى تسعد أو تشقى .. آه .. كانت دموعه  
 فظيعة عبّرت عن آلامه .. وضحكته .. عملت نفس عمل  
 الدموع ..

وكان « طلبة » يعرف حياة زميله الداخلية . ويعرف أن ما هناك  
 فى منزله لا يعطى إلا هذا . لكن بعده من البيت كان له دخل فيما  
 حدث لابنه وزوجته لم تتعلم .

كان « طلبة » يصعد السلم المؤدى إلى السطح والشمس  
 معلقة على الأفق .. فى الدار تفوح روائح ناطقة . كل رائحة تشير  
 إلى قصد : البخور والتوابل والماء المرشوش على أرض الدار رائحته  
 مثل رائحة جنينة لا ترى أشجارها . والصابون المعطر الذى يفوح  
 من ملابس زوجته ومنديل رأسها .. والحصير المفروش يرق تحت  
 النور الغارب ، وهتافات نبيل ابنه بالتحية والسؤال عن « لعبة »  
 كان قد أوصى بها ..

وجلس « طلبة » يتعشى فى صمت .. ونجحت الروائح كلها  
 حوله وهو جالس مع زوجته وابنه . لكنها جميعا لم تفلح فى

شيء .. كل ما يفعله كان بلا شهية . حتى الهدوء المستسلم  
وغمزات النجوم ووسوسة « غوايش » زوجته وغمز نبراتها .. لم  
يفلح في شيء ..

كان « طلبة » لا يزال هناك . لم ينفصل بعد عن الساعة التي  
بكى فيها زميله وضحك .. فليس معنى مرورها أنها ذهبت . كان  
« طلبة » منغمسا فيها . ولا يزال يذكر منظر التعيس الذي يمسك  
بتلابيب تعيس يجره .. ذلك هو زميله وبائع البطاطا . ثم الرقصات  
التي تحمل معنى « أنه لا فائدة » والتي كانت تصدر من البائع ،  
والتي ضحك منها زميله في الظلام . لعله لم يفهم قصدها . ولعل  
« طلبة » فهم منها تعبير « الباليه » يبدو رقصا وهو لغة ..  
وكانت زوجته محمقة إليه قلقة عليه .. كانت ترتب نفسها  
لتجعله ينام خلى البال ، ونظرت إلى النجوم وتأوهت وقالت بليونة  
ريفية :

— طلبة .. النجوم حلوة .. الله !

همهم الرجل :

— أى نجوم ؟!

لكنها أحست أن شيئا أثقل من قوتها يقف بينها وبينه وعندئذ

قالت بلا إرادة :

— نبيل .. كلم أبوك .

فزحف نبيل جالسا على الحصير المصقول حتى التصق

بأبيه . ألقى كتفه على صدر أبيه ورفع وجهه إليه هامسا :

— اشتريت لى اللعبة ؟

فدفعه الأب بقسوة حتى اندفع بعيدا عنه .. وذهب يكفكف دموعه .. ثم نام ..

كان يقول لزوجته وهما مختليان تحت النجوم .. يقول بسهوم :

— يسألنى عن لعبة . ابن زميلى بلغ من العمر خمسة عشر عاما ولم .. و .. و .. و .. وأنا الآن بعيد عنه .. أنا لو كنت معه ما قدرت على نفعه .. وأنت .. لا تعرفين أكثر منى .. وهو لم يعجبني فى المرة السابقة . سألته فلم يعرف .. و .. وأنا رأيت ناسا يبنون عمارات عالية ببساطة .. بناء نبيل وبثينة محتاج إلى مهندس إلهى ..

وعندئذ أحست الزوجة أن رائحة البخور والتوابل والصابون المعطر والأرض المرشوشة آخر ما يهم طلبة . هناك أشياء أهم لحياتهما من كل هذا فعضت شفيتها ثم أصبعها ثم لسانها ، ثم قالت :

— الشيخ عبد الصبور رجل فى عمر والدى يعيش من تعليم أبناء القرية ..

فرد طلبة :

— عال ..

— صبرك .. سيعلمنى أنا ونبيل .. وسأكون زميلته فى حل الواجبات .. وافق على ذلك من أجل نبيل وسترى العجب منى

ومنه .. لكن قل لى :. عندما سينجح ماذا ستفعل لى أنا ؟!

..... —

— نسيت .. سيكون « نبيل » هو الهدية التى قدّمها لى  
« أبو نبيل » ..

وعندئذ استطاع الرجل أن يشم رائحة البخور والتوابل والأرض  
المرشوشة والصابون المعطر ، واستطاعت المرأة أن ترى  
النجوم ..

وَقِسْمُ الْجَزَاءِ



لم يشعر الملك بسعادة مثل تلك التي شعر بها في هذه الليلة .  
 لكنها لم تلبث أن تبددت . وعندئذ سأل نفسه وهو يتقلب في  
 فراشه: « لماذا لا يشعر بأن للسعادة عمقا ؟ .. لماذا هي هكذا  
 مثل ظل السحاب ؟! ، لكنه تنهد وتقلب في فراشه ، ثم نهض  
 جالسا :

كانت أنوار قناديل الزيت تتموج في طبقات متهاففة على فراش  
 غرفته الفسيحة . وبقايا شموع بأطراف سوداء لا تزال في أماكنها  
 بعد إطفائها . وجو الليل دفيء .. رآه عندما هصر ستارا وأطل من  
 النافذة .. طيلسان أسود تحليه النجوم وتفوح من خلاله روائح  
 حديقة لم يغرس الأكاسرة مثلها أبدا .

وملأ صدره بالهواء ووقف يحملق في الظلام ، وسرّه أن سمع  
 صيحة ديدبان عند بقعة من السور العالي فتبسّم وهز رأسه .  
 عاودته لمسة السعادة التي لا تكاد تبقى على شغاف قلبه إلا بقدر  
 ما يمر الطيف . وأخذ يتذكر ..

خيول على أفواهاها الزبد مقوسة الظهر والرقاب من ثقل  
 الحمولة تجر عربات نصف قطر عجلة العربة منها ما يقرب من  
 مترين ، سواقها بعضلات عبيد روما ينقلون الأحجار من كل مكان  
 لبناء السور حول قصر الملك . بعض هذه الأحجار أخضر

من طحالب البحر وبعض هذه الأحجار أحمر لأنه كان مسكنا  
لحيوانات قتلت ، وبعضها أسود كأنه كان على فوهة بركان . ولما  
ارتفع السور بجفائه وغموضه وأسراره كأنه طلاس ركب الملك  
عربة ودار حوله من الليل ، وعندما رأى الظلمات ترسم خطوطها  
مع تقاسيم أحجار السور رضى قلبه .. سيكون فى مأمن . ثم ..  
هناك « قمرات » على حافة السور العليا .. يقف فيها حراس  
بشوارب الأسود وعيون القصور .

وتحسس الملك أطراف الستارة وتنهّد ، إنه لا يكاد يشعر  
بالرضا ولا يكاد يعرفه مع أنه قد رآه مرة ، رآه واضحا جميلا بسيطا  
يكاد يمسك بأطراف الأصابع ، هناك فى أبعاد هذه الحديقة التى  
يطل عليها الآن والتى تفعم الليل بروائح ملأت مخدعه .

كان الصباح باكرا يومئذ لا يستيقظ فيه الملوك فى العادة لكن  
هموم قلبه أيقظته . فهذه التى بنى القصر من أجلها سمع عنها أنها  
توقفت فى أحد أسفارها عند كوخ فلاح وحدثته وشربت من  
جرّته ؛ ولأجل هذا استيقظ مهموما .

والشمس لم تفرش العشب فى حديقة قصره . وهناك غلام  
يلعب فى يده فأس صغيرة كأنها بنت لفأس أبيه الجنائى  
الكبير .. وأبوه بعيد عنه فى مكان ناء من الحديقة ، والغلام يسوّى  
بفأسه أحد أحواض الزهور .. يعمل ويلعب ..

وقف الملك يتأمل فى ذلك الصباح .. لم تكن الحديقة  
مظلمة هكذا كما يراها الآن تحت طيلسان الليل ، ولم يشعر به

الغلام ، وكان يغنى أغنية للفأس الصغيرة ، كان يقول لها :  
 « اكبرى لأكبر معك . فعندما يطول ذراعك سيطول ذراعى ،  
 وطالما أنت صغيرة سأظل أنا صغيرا .. اكبرى » ..

كان صوت الغلام فى ذلك الصباح وهو يضحك وحيدا مثل  
 صوت هذا الطائر الذى يتناهى إلى سمع الملك الآن فى الليل ،  
 وتمنى الملك ساعتئذ أن يجلس على الأرض أمام حوض الزهور  
 وهلة صغيرة لكن هذه اللمسة ما لبثت أن ولت سريعا مثل كل  
 اللمسات فتهد . فقد شم رائحة الرضا . وعندئذ تنحنج . جفل  
 الصبى ونهض واقفا وفأسه فى كفه ينظر إليه بعينين متسائلتين  
 تقولان : « من أنت ؟ » فوضع الملك سبابته على فمه يطلب من  
 الغلام السكوت وهو يلتفت إلى ناحية أخرى من الحديقة لكى  
 يوهم الغلام أن أحدا قادم إليهم .

وبدا على وجه الصبى حيرة ، وأخذ ينظر بحركة لا إرادة فيها  
 وعندئذ قال له الملك هامسا :

— إن الملك سيأتى من هذه الناحية .. هس .. لا تتكلم ..  
 — إذن فلست أنت الملك ؟!

هز رأسه نفيا فبدا الهدوء على وجه الغلام .. وبدأ يتحرك مبتعدا  
 عن محدثه وعلى وجهه أمارات من شبع من حديث . مل .. لكن  
 الملك أمسك به من صدائته ليستوقفه فنظر إليه الصبى نظرة من  
 يعاتب على الحرية وسأل بعينه : « لماذا ؟ » .  
 فقال له الملك :

— لماذا لا تنتظر حتى تراه ؟!

فأجابه الصبي بهدوء :

— لأننى لا أشعر برغبة فى ذلك !

سأله دهشا :

— ولماذا ؟

فردَّ ببراءة :

— لأنه لا يشعر برغبة فى أن يرانى ..

ثم جرى هاربا بين الخمائل الحديثة الغرس وفأسه ذات اليد الصغيرة فى يده الصغيرة ، لكن منظر عينيه الراضيتين لم يبارح خيال الملك كأنما كان هذا الصبي خائفا على طمأنينته أن يأخذها أحد ..

عيناه سوداوان مثل هذا الليل الذى يطل عليه من نافذته الآن وأمامه خضرة الحديقة المبهمة تتراعى حتى السور العظيم ، ذلك الذى لم يبن سور مثله قط .. وكأنما لذ للملك أن يمتحن يقظة حراسه فترك النافذة ودخل إلى غرفته وأحضر طبقين من الفضة ووقف فى النافذة وصفق واحدا منهما بالآخر فانتشرت همهمات .

كان هو قد أسدل ستائره وتمدد فى الفراش فى الداخل .  
وعندما لقي حبيبته فى اليوم التالى وصف لها آلام نفسه ، إنه قادر على أن يمتلك كل شيء لكنه عاجز عن أن يمتلك قلب غلام صغير لعدة دقائق . ويرى فى عيون البسطاء سعادة ذات رونق



حقيقى هو على يقين من أن قطرة واحدة منها تفعل فى حياته ما لم يفعله ذلك القصر الذى تحدث به الملوك . وعندئذ سأل حبيبته التى بنى من أجلها القصر عن سر عناء نفسه . فأجابته : بأن الذى يملك عادة شيئاً لا يملك الناس مثله فعليه أن يعيش فى خوف . فهذه ضريبة التفاوت . وهأنذا تملك أجمل شيئين فى الوجود ! . ثم قررت ضاحكة فمسح الملك بكفه على شعرها المخملى وأغمض عينيه ثم قال لها :

— أنت يا من شربت من جرّة فلاح أثناء أحد أسفارك .. لقد صنعت لك من الينابيع ما هو فى صفاء الفضة ونظافة الندى . حوريات من المرمر على حوافى كل ينبوع يسكن الماء لحبيبتى طول الليل والنهار فى انتظار شربة . وأوصيت مستحضرى العطور أن يأخذوا روح كل زهرة فى حديقة القصر لكى يصنعوا لثيابك عطرا محرما على غيرك . ومن أجلك نقلت الأحجار من كل لون . أخضر يغطيه الطحلب وأحمر يلوّثه الدم وأسود كأنه كان على فوهة بركان . إننى يا حبيبتى أبحث عن الرضا الحقيقى الذى رأيته فى عين الغلام فى الحديقة .. لو أطل من عيني يوما فساكون اسعد الناس . وهأنذا أرى شيئاً منه يطل من عينيك فلماذا لا تمنحني نفحة منه . فقد تعلمت أن قلوب الناس تطل من عيونهم فتلك هى النوافذ الطبيعية للقلوب يا سيدتى .

لم تكن هذه الفتاة تحب الملك . لكن معظم الفتيات كن يحسدها على حظها . وكانت هى تتساءل عن الحظ . كانت





كانت تؤمن بأن القدرة ليست مرادفة  
للسعادة بدليل ... هذا الملك

تؤمن أن القدرة ليست معنى مرادفا للسعادة باستمرار . فكثيرا ما تكون القدرة سبيلا للتعاسة .. مثل هذا الملك .. الذى ترك الناس يبحثون عن حجر بناء فلا يجدونه ومع ذلك هو شاعر بالخوف . ثم يطلب منها — أن تمنحه ما لا تدخره له .. إنها تحب صانع أدوات موسيقية ... وكل قيثارة صنعها كان أول نطق لها نغمة حب مهداة إليها .. فى حياتهم ظمأ وجوع وشبع ورى .. ما أحلى هذا !! ليس قدرة جبارة تجمع الأحجار من كل لون الأنحضر منها والأسود والدامى ..

لكنها كانت تطلب منه ما يعجز عنه دائما فقد طلبت أن يبنى لها قصرا لم يسكنه ملك قط . وقد فعل . وهى حتى الآن لم تستطع أن تنسى حبیبها . وجرة الفلاح التى شربت منها طالما حدثها هو عنها .. عندما كان يخرج إلى الخلاء ليذكرها أو ليتسلى عن حبها .. فشربت هى الأخرى من فمها الخشن .. وفى هذه الليلة قام الملك يطل على الحديقة . وقف فى النافذة نفسها تلك التى وقف فيها منذ ليل . وكان فى قلبه هم كبير أفاق منه ليطلب أحد الحراس . فلما دخل عليه قال له الملك : — عليك أن تأتى إلىّ بالبناء حالا .

— البناء الذى بنى هذا القصر يا مولاي ؟

فردّ فى صخب :

— هل تظن أننى أقصد ذلك الذى بنى داركم أينها المغرور ..

إذهب !

فانصرف يرتجف . وما لبثوا أن جاءوا بالبناء . دخل على الملك وهو لا يدري ماذا يريد فهذه ساعة متأخرة من الليل . لكنه على كل حال دخل عليه مبتسم الأسارير :

— يسعدنى يا مولاي أن تطلبنى فى هذه الساعة من الليل .  
ذلك يدل على اهتمامك بشخصى الضعيف الذى يود أن يعيش  
خادما لكم .

فسكت الملك قليلا ولمعت عيناه بما لم يستطع البناء أن يراه . ثم أخذ يحدثه عن الأخبار التى تواردت مع بعض القادمين من التجار تدل على أن أحد الملوك يتتوى بناء قصر لن يجعل لقصره ذكرا .

لكن البناء رد على الملك فى غرور خفى وبطريقة كان موقنا أنها ستحمل الأمان إلى قلبه :

— من المحال يا مولاي أن يبنى ملك قصرا مثل قصرك . وحتى لو استطاع ذلك بما يملكه من ذهب فإنه لن يستطيع ذلك إلا إذا بنته يداى هاتان .

غمغم الملك :

— يداك هاتان !

— نعم . وهما من أدواتك ولن تعملا إلا لرضاك !

— حسنا ..

وساد صمت . ونظر الرجل إلى الملك فوجد على ملامحه شيئا غامضا يبدو فى صورة تقدير لعظيم فنه وإخلاصه . وكان



الملك فى هذه الوهلات سابحا فى رغبات حبيبته التى لم يعرف  
رغباتها قط .. فلما أفاق من خواطره قال للبناء :

— هناك أبراج تبدو فى الليل شديدة الغموض .. ما أروعها ...  
هلم أيها السيد فأشعل الشموع فى هذا الشمعدان وتعال معى نلق  
نظرة على هذا السحر . وما أعظم أن تشرح لى مقاصد الأحجار  
حين تضعها يد بارعة بعضها جنب بعض فتصبح ذات لغة كالشعر  
والموسيقى .. آه .. هلم أيها السيد .

وعندئذ غمر الغرور قلب البناء ومشى بالشمعدان يسبق  
الملك . أنواره تتراقص فترقص بها ظلال الرجلين .. البناء  
والملك .. وسمع الحراس ورأوا لكنهم سكتوا .. وبدأ السور  
الغامض البناء ذو الأحجار الفضة وكأنه قادر على محاربة الناس  
أجمعين ، ومن خلال الحديقة انبعث صوت طائر غريب . زعق  
مرتين وسكت وسأل الملك البناء عن اسم هذا الطائر هل يعرفه ؟  
فرد الرجل والشمعدان ينتقل من يد ليد : لعله « مالك الحزين »  
يا مولاي .. فمط الملك شفته وسأل البناء :

— ولماذا هو حزين أيها البناء !؟

— يقولون لأنه لم يذق حلاوة الحب .

— لكن الطيور شديدة العشق ولهذا فهى كثيرة المرح :

— لعله عيب فى السلالة . هكذا يقولون .. هذا أول باب

البرج يا مولاي ..

كان نور الشمعدان يرتدى واهنا على الدرج الحجري وروائح

مثل أنفاس الكهوف تنبعث من المكان .. والبناء يصعد بظهره أمام الملك لينير له الطريق ويحدثه في إخلاص وخوف غامض .  
وعندما بدأ الاثنان يلهثان كانا قد بلغا مرتفعا شاهقا . ووقف البناء يشرح لغة الأحجار وكيف تنم العقود بلا مونة وأثر المداخل الطويلة على النفوس . وكان الليل شديد الصمت والشمعدان على الأرض .. والسقف مظلم وظل الملك والبناء يشتبكان وينفصلان بين لحظة وأخرى ..

وكان الملك صامتا . مثل تلميذ يسمع ولا يعي والآخر مسترسل في الحديث . يبدد المخاوف بالكلام مثل تعويذة لفظية يتقى بها المخاطر . لكن صمت الملك كان متصلا لا شيء يقطعه ..

لا نحنحة ولا همهمة ولا ثناء ولا اعتراض ..  
ووقف الملك وأطل من أعلى برج ، وكانت الأرض بعيدة وتحت البرج تمثال « قاذف القرص » الرومانى ، يغطى الظلام جسمه الفذ .

وظل الملك في موقفه ظهره للبناء الذى يتكلم ويتكلم .  
والشمعدان على الأرض . يرسم ظلالا مرتجفة فى أماكن شتى من البهو الذى يقفان فيه .

وشعر البناء أنه يكلم شيئا لا يسمع لكنه خاف أن يسكت فأعاد ما قال على أمل أن يقول له الملك : لقد سمعت هذا من قبل لكن شيئا من ذلك لم يحدث بل ظل هو واقفا فى مكانه حتى فرغ



البناء من « درسه » وصمت فلم يلتفت إلى الملك . فإذا بالبناء يخاف قوة الصمت التي تظلل المكان خصوصا عندما بدأت الشموع تجرى نحو نهاياتها .

عندئذ شرع في إعادة ما قال مرة ثالثة لكن الملك ما لبث أن التفت له وقال له :

— تعال .. تقدم لترى جمال هذا المنظر أيها الرجل الطيب .. لن تبني مثل هذا أبدا .

وتقدم البناء وأطل . فدفعه الملك من أعلى — فجأة — فسقط على التمثال تحت النافذة فاقد الحياة .

\* \* \*

« كنت تخافين يا حبيبتي أن تسكن حسناء أخرى قصرا مثل قصرك ومن أجل حبي لك جرمت » سنمار « البناء من الحياة .. فهل أنت سعيدة ؟! » .

لم ترد عليه الفتاة . انصرفت ليلئذ ولم يعد يراها . كأنما كان ذلك هو المدخل الوحيد الذي شوى قلبه بالألم . وقالوا : إنها فرّت وحدها . وقالوا : إنها فرّت مع حبيبها صنائع الآلات الموسيقية . لكن الملك ظل بعد ذلك طوال سنة كاملة كلما جنّ الليل يحمل الشمعدان وحيدا ويذهب إلى نفس البرج وينازع نفسه ساعة كاملة أن يلقي بجسمه من حيث ألقى « سنمار » البناء ... حتى وافته المنية .

السَّيِّدَةُ كَرِيمَةُ

كأى فتاة من سكان المدينة لا تزال فى مقتبل العمر ولم تر  
الريف إلا وهى صغيرة ... شعرت بوطأة الليل عندما انتهت سهرتها  
عند الطبيب وزوجته وغادرت الجناح الصغير الذى يسكنونه فى  
حديقة المركز الاجتماعى فى القرية وأخذت طريقها إلى غرفتها فى  
الجانب الآخر .

وكان يؤنسها ، وهى فى الطريق صوت كلب ينبح ومصباح  
صغير حملته فى يدها ليلقى دائرة من النور أمامها .

وعندما أغلقت على نفسها الباب واستلقت فى فراشها أحست  
أنها على غير ما يرام . ووهلة بعد وهلة وهى مستغرقة فى التفكير  
شعرت بما ينقصها .. وعرفت أنه السكينة .. والسلام !.

ولم يزعجها الأمر كثيرا لأنها تعرف أنه غير متعلق بعملها . فهى  
منذ دخلت القرية . منذ ستة شهور قامت بمائة عملية ولادة  
نهضت الأمهات بعدها بسلام . وكانت نسبة الذكور فيها عالية ،  
ولذلك فقد كانت الفلاحات يقلن عنها : « إن سمرة وجهها أحلى  
من بياض اللبن » ..

نعم ..

ليس هذا هو ما ينقصها . بل إنه خوف من مجهول . شىء  
يتعلق باحترام الناس لها . فهى تعرف أنها « حكيمة » ولكنها

على الرغم من حداثة سنّها ووجود طبيب فى المركز فإنهم ينادونها بكلمة « دكتورة » ويعتدلون فى جلساتهم على المصاطب وهى مارة عليهم .

وكانت عند ذلك تقول فى نفسها : « ما أحلى أن يشعر الإنسان بقيمته !! » وتمنت من صميم قلبها لو أن والدها كان حياً ومشى خلفها من على بعد .. بحيث لا يشعر الناس أنها بنته .. وخيل إليها أنه لو كان حياً ، ورأى هذا ما مات أبداً .. لعاش طول الدهر !!

\* \* \*

لكن جوّها الداخلى فى المسكن كان يخيفها . وهى قبل ذلك لم تنم وحدها لا فى مدينة ولا فى قرية ، وقد شعرت منذ الليلة الأولى بثقل مسئولية حراسة الإنسان لنفسه .. « آه .. كثير من الأشياء يعجز المرء أن يعمل له لنفسه ولا بد له من يد الغير . والحراسة من هذه الأشياء » .

كان الطبيب يأخذ زوجته نهاية كل أسبوع وينزل إلى المدينة حيث أهلها وأهله ولا يعودان إلا يوم الأحد ، والمبشرف الاجتماعى يبيت عند أهله كل ليلة لأنه من بلدة قريبة ، وهناك الخفير المكلف بحراسة المركز .. نادى عليه ذات ليلة من الليالى التى يغيب فيها الطبيب فلم يكن موجودا . وكتمت ذلك عن نفسها وعن الناس .. عن نفسها لتوهم أن هناك من يحرس المكان . وعن الناس حتى لا يصل الخبر إلى من لم يعرفه ، لكنها سمعت امرأة سليطة اللسان تناوش الخفير فى النهار وتعيّره بأنه ينام

فى أحضان زوجته فلا يؤدى عمله فى الليل خوفا من ناس تشاجر معهم ذلك الجبان .

غير أنها ما كانت تخاف أحدا من الفلاحين . كانت موقنة بأن كل فرد منهم حارس لها .. فلقد سهرت ليلة بطولها حتى طلوع النهار إلى جوار امرأة تلد ورأت على وجهها سكرات الموت ثم .. انتصرت وولدت ولدا . ونسب القرويون إليها قدرة خارقة لا تخلو من مبالغة الريفى : حين يتحدث عن « المهارات » و « الكرامات » .. ولكنها على كل حال سعدت بهذا الوهم .

وقالت فى نفسها : « لو أن أبى كان حيا ورأى هذا المعجد الذى بنيت فى القرية !؟ » .

ثم ذكرت شيئا آخر : هو أن حالة الولادة التى تحدث بها الناس وقعت فى دار تعرفها .. لها بها صلة قديمة .. ربما كانت أعمق صلة تربط « قلبا » بمكان .

فهذه الدار كانت دار أبيها : إنها تعرف ذلك من أمها .. وفى ذهنها ذكريات غامضة مثل الرؤى والأحلام عن كل حجرة فيها . لكن « كريمة » أحست أن هذه المرأة تعاني آلام المخاض ربما فى البقعة التى ولدتها فيها أمها . والفلاحون فى القرية لا يعرفون ذلك ..

لا يعرفون أنها بنت عبد اللطيف زعزوع . كل الناس ينادونها باسم : الست كريمة .. فقط . ولهذا فإن الأمن الداخلى بالنسبة إليها غير محقق .



إنها أصبحت عدوة « للداية » منذ يوم وفودها . تلك المرأة القارح ذات العود والجسم والأرداف والصوت الخشن والحيلة . والتي أكلت دجاج القرية . ودعت كل مولود فيها بابنها : « آه لو تعلم هذه الداية بأننى بنت عبد اللطيف زعزوع !! » .

الداية والطبيب مصدر القلق لها ..

أما المشرف الاجتماعى فهو نقطة الحنان فى الموقف ... لكنه فى معظم الأوقات بعيد عنها .

\* \* \*

ولما ماتت زوجة « الشاذلى » صياد السمك من آثار حمى بعد الولادة لم تكن فى الحقيقة إلا ( ملاريا ) ومات بعدها ابنها .. أخذت الداية تشنّع على « كريمة » وتتهمها بأنها لا تعرف شيئاً . وبأن النحس أخذ يجرى فى قدميها نحو الأمهات . وسمعت ذلك من فم الطبيب الذى ينفذ ( كلمة العلم ) فى كل ما يعمل .. سمعتها منه فى إحدى الليالى وهى ساهرة عندهم وفى لحظة قامت فيها زوجته لبعض شئونها .. وملاً الغيظ قلبها . كان ممكناً جداً أن يقضى على مثل هذه الخرافة بدل أن ينميها . وأحست كريمة فى نظرتة شيئاً غامضاً .. أحست أنه يطلب منها ما لم يخطر على بالها قط . وما دام لم يخطر على بالها فإنها لم تشعر تَوَّأ بمقدماته . ومالت — بدون شعور — إلى التأويل الحسن ..

\* \* \*

وبغريزة المرأة شاءت أن تمتحنه . ولم يزد الأمر عن نظرة لينة مستنيمة رددتها بينه وبين الباب الذى ستعود منه زوجته .. فطفح وجهه بالرغبة التى حركت فى قلبه هذه الضغائن . وبعد عودة زوجته استأذنت فى الانصراف . وصافحت كلا منهما . لكنها تعمدت أن تهمل كفها فى كف الطبيب لوهلة أتاحت لها تأكيدا آخر بأن هذا الرجل يؤذيها لأنه يريد شيئا .

\* \* \*

لم يكن الهدوء الذى يشمل المكان فى هذه الليلة عاديا بعد أن عادت إلى غرفتها .. كان صموتا أبكم .. كان الليل كف عن التنفس . لذلك باتت تسمع دقات قلبها وشهقات بكائها ؛ لأنها موقنة أن قوى الشر فى ( الجهل والعلم ) .. فى الداية والطبيب تحالفت لاتحاد الهدف .

والظلام الذى يغرى الريفى بالخروج للشار أو للجريمة هو نفسه الذى طحن رأس « كريمة » بالأفكار . حتى كادت تجزم بأنه لولا وجود ( الظلام ) ما كثر التفكير فى الجرائم . وطرأت عليها فكرة عادية ، وهى فى الفراش عجبت لماذا غابت عنها: «لماذا لا تنتقل إلى قرية أخرى.. وكله عمل!!» غير أن تعليل مثل الفكرة سعى إليها وكأنه سهم مضى .. فوجدت نفسها تهمس: «إنه حمدي..» المشرف الاجتماعى . الإنسان والرئيس الذى ارتبط فى نفسها مع ذكريات الكرامة .. والنجاح .. والعجد .. وربما العطف .. وهو سر من الأسرار



سرة وجهها أحلى من بياض اللبن ١٠٠

التي جعلت الفلاحين يعتدلون. في جلساتهم وهي مارة عليهم :  
« آه .: لو رأى أبى ذلك » .

ثم قالت وهي تعض شفتها : « لو لم أكن بنت عبد اللطيف  
زعزوع .. لو لم أكن بنته !! » .

\*\*\*

ومنذ بدأت معاملة « كريمة » تلين مع الطبيب بدأت زيارات  
الداية لعيادة المركز ... تقل ..

ولم يكن ذلك مدعاة لسرور « كريمة » بل مدعاة لزيادة  
خوفها .

ولم يكن المشرف الاجتماعى من ذلك النوع الذى يجيد  
الكلام مع النساء ، بل كان حذرا وربما طويل الصمت . لكنها  
كثيرا ما ضبطته وهو ينظر إليها فى حب ... نظرة رجل لا يستطيع  
أن يقول ما يكتنه لاعتبارات ليس فى وسعها أن تعرفها الآن .

وأحست كريمة أن حادثا ما على وشك أن يقع .. مجرد  
إحساس تأكد لديها يوم الأحد التالى عندما عاد الطبيب وحده من  
المدينة وترك زوجته هناك ليعود إليها يوم الخميس .

وكان طبيعيا أن تسأل الطبيب عن سبب تأخر زوجته :  
— لعله خير ؟!

وكان ذلك أثناء العمل فى النهار . فأجابها وقد كسر أحد  
جفنيه :

— هل اهتممت بالأمر ؟!



وكان لا بد أن تجيب فردت في ارتباك :

— طبعا .. إنه مهم ..

فسكت قليلا ثم أجاب وهو يطهر يديه بشيء من الكحول :

— أم سليمان الداية .. مريضة !

— شفاها الله ..

فأدار وجهه نحو النافذة وأولاها ظهره :

— إنها تحبك يا كريمة !

فردت في تهكم :

— من القلب للقلب رسول .

فقهقه ضاحكا ... وحملت ضحكته ما عجزت عن

تشخيصه .. لكنها شعرت بشيء ثقیل يهبط على قلبها ..

\*\*\*

لم يكن نورها قد انطفأ في ليلة ذلك اليوم ..

سهرت تكتب بعض خطابات . منها ما هو لأُمها ومنها ما هو

لصديقات ...

« إننى أشعر بالقلق ... » وأخذ القلم في انسيابه نحو كلمة

أخرى في خطاب الصديقة وإذا ببابها يطرق . كذبت سمعها

ولكن سكون الريف يجسم حتى خفق القلب . ونهضت واقفة فإذا

بالطرق مع صوت الطبيب وهو يقول :

— « كريمة .. كريمة .. افتحى .. فيه حالة آ .. آ .. » .

وأسرعت وفتحت الباب . بعد أن طرحت على كتفها شالا .

ودخل الطبيب في الحال وأقفل الباب وراءه ... سأله لاهثة :



— حالة !؟ .. ولادة يا دكتور !؟

فهز رأسه نفيا وظهره إلى الباب .. وفحصته هي في صمت ..  
رأت تهدج أنفاسه وشعر صدره البادى من ( البيجاما ) .. وكان  
واضحاً أنه خاض معتركا من الأفكار قبل أن يقدم على هذا العمل .  
وتلفتت حولها كأنها تبحث عما تدافع به عن نفسها لكنها أدركت  
أن أى خطوة غير مدروسة قد تفضي إلى نتائج محزنة . فسأله في  
مسالمة :

— هل هذا تعبير عن الحب يا دكتور !؟

فهز رأسه بالإيجاب . فقالت :

— لكنى أنا شخصيا أفضل تعبيراً أخف . إن ذلك يخيفنى ..  
آ .. آ .. أنا .. أراك الآن غير الرجل الذى أراه فى النهار . فهل  
الليل يغير الأشياء !؟

— ربما .. أنا .. أ ..

فقاطعته :

— أنا أعرف ما تريد .. وأنا .. مستعدة لمبادلتك عواطفك ..  
لكن .. هل دفعك إلى حبى أن زوجتك غائبة !؟ ..  
— لا .. إنها .. إنها مسألة قديمة .

— هل تحب أن نتصارع كما تتصارع الحيوانات !؟ .. ربما  
حدث .. ما ليس فى حسابنا !؟  
— لا ..

— إذن نتفاهم .. أنت طيب .. وتحب .. تمام ؟  
فهز رأسه إيجاباً ..

— كنت متوقعة هذا ، ولو كان لى أن أحذرك لفعلت ..  
 — لماذا ؟!  
 — من الممكن أن تعود بعد نصف ساعة .. وإن شئت ذهبت  
 أنا إليك !!  
 ففتح فمه مدهوشا وقال :  
 — فى .. فى .. فراش زوجتى ؟!  
 فضحكت وهى تغالب إجهاشها بالبكاء :  
 — فراشها أقدس .. من .. روحى ؟! آه ..!!  
 وبلعت ريفها وهى تتأوه وصمتت ثم أكملت :  
 — إذن فأنا مصرة على أن يكون هناك .. مالك تنظر هكذا ..  
 أنا لا أخدعك .. فى استطاعتى أن أصرخ فيستيقظ الفلاحون ..  
 و ..

ولم يمهلها ..

وخرج ..

وتركت الباب مفتوحا حتى ابتعد ثم أوصدته وارتمت على  
 فراشها كالجريح المنزوف حتى تسلفت الشمس من النافذة  
 الشرقية .

\*\*\*

ولم يمض يومان حتى التقى الطبيب بالداية ، وسألها فى  
 فضول : عما إذا كانت تعرف رجلا اسمه عبد اللطيف زعزوع ؟  
 وفتحت الداية عينيها فى عجب كأنها تسأل عن العلاقة ؟! ثم  
 ضحكت فى تهالك .. فلم يكن رحمه الله إلا « لحادا » .. وكان

ذا صوت جهورى مضحك يستأجره الفلاحون للنداء عن حاجاتهم  
المفقودة : « يا أولاد الحلال .. يا أولاد الحلال .. معزة تايهة من  
البارح العصر . والحلاوة ريال يا أولاد الحلال » ولما مات رحلت  
زوجته بنتين وأقامت فى المدينة .. واحدة منهما هى « كريمة » .

— « بنت اللحد .. أصبحت دكتورة ؟ » ها ها ها !!

— « أبوها يدفن .. وهى تولد » .. عال والله !!..

— « كان أبوها جميل الصوت حين ينادى على المعيز  
المفقودة » الله يرحمه !.

ولم يعودوا يعتدلون فى جلساتهم وهى مارة ، وتهامسوا .  
وسمعت ضحكات . وشعرت بالغربة ..

\*\*\*

وفى إحدى الليالى بينما كانت فى غرفتها بالمركز كان الجدل  
محتدما بين الطبيب والمشرف الاجتماعى حول هذه القضية فى  
منزل أحد الأعيان . وسفه المشرف وجهة نظر الطبيب فى أنه كان  
يجب عليها أن تشتغل فى قرية غير قريتها من أجل راحة نفسها  
واحترام الناس الذى هو مصدر الثقة . ولم يكن أحد يعلم بالحلقة  
المفقودة فى القضية بينها وبين الطبيب .

وندد المشرف الاجتماعى بمثل هذه النظرة وأعتبرها فى  
المجتمع الريفى آفة تجب مقاومتها مثل الآفات التى تأكل الزرع  
والفاكهة . وعندئذ أخرجته الطبيب قائلاً :

— يعنى هل من الممكن وأنت مقتنع بالأمر .. أن تقدم على الزواج من كريمة ؟ ..

وشخصت عيون الناس . ولم يكن المشرف من الذين يفرقون بين العقيدة والعمل .. لكنه عز عليه أن يعلن رأيه فى مجال التحدى . فخرج صامتا وتركهم يتلفتون .. ولم يحيى أحدا ..

\* \* \*

ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى أعلن نبأ أن كان لهما فى القرية وقع وصدى ظل إلى أمد طويل . هو انتقال كريمة والمشرف الاجتماعى من القرية . بعد إعلان خطبتهما .. إلى قرية لها حظ من السعادة بهما لم توفره لنفسها القرية الأولى .





حَسْبُ الْجَدُولِ

لم يشعر أنه فارقتها إلا هذه اللحظة . حين وضع قدمه على  
بلاط الرصيف في ساعة متأخرة من ليلة خريف . كان عائداً إلى  
القاهرة . كان في الإسكندرية يودعها . ذلك شيء موجه . وعلى  
الرغم من أنه ينظر إلى جمالون محطة القاهرة الزجاجي ويسمع زفير  
القطارات تحته وهمس النشاليين في جلايبهم الزرقاء .. على الرغم  
من كل ذلك فإن روائح الميناء لا تزال مستولية عليه ، وكذلك  
أصواته .

وأقلعت الباخرة في المساء . صفيها مع البواخر الأخرى كأنه  
نواح مضبوط .. ليس له قرار ولا جواب ولكنه يصل إلى قرار  
القلب ..

وتذكر ذلك وهو ينادى سيارة أجرة لكي يصل إلى بيته سريعاً .  
وألقي إلى السائق باسم الشارع الذي يقصده ثم انزوى في الركن  
وقد عاوده كل شيء كأنه حاضر بين عينيه .

رحلتها في القطار معاً إلى الإسكندرية لكي يودعها مسافرة  
إلى الخارج . والمقعدان المتجاورين . والكتف تلمس الكتف  
كلما مر القطار بمنعرج . والعيون تقول . والصمت مخيم وأحد  
المسافرين يطلق راديو على مقربة منهما فارضاً عليهما الأغاني  
والأحاديث ، وهما صامتان . كل عين من عيونهما مربوطة

بالشفة . لو نطق أحدهما لسالت الدموع .. كل ذلك غير مهم . لكن المهم هو آخر كلمة قالتها له وهي تصعد السلم إلى الباخرة ، ولم تكن آخر كلمة إلا ..

وعض شفته وتأوه . ونظر إلى الشارع عبر زجاج التاكسي فرأى لافتة كبيرة تحمل اسم إحدى المدارس . والسور ممتد والحدائق خضراء نائمة تحت الليل .

وذكره هذا بزوجته المسافرة من جديد . ما كان أروغها وهي تتهادى خارجة أو داخلية في مثل هذا الباب !! .. بوجهها المسالم وقدّها الضعيف ، إنه يدري كم كان ضعفها يؤثر في قواه .. كان يستلذ شكواها كلما التقيا قبل الزواج وكان يعزو كل ما بها إلى فرط الحساسية .

وقررت بالضحك يومئذ وقالت له : هكذا قال لي الأطباء .  
وقابل ضحكتها الرطبة بضحكة خشنة ورد عليها :

— الزواج سيغير كل شيء !!

فأطرقت نحو الأرض وقد احمر وجهها جدا ، كان في لون يدل على الحياء القاتل . وكم كان سعيدا بهذا الإحراج !!

\* \* \*

هذه سيارة الأجرة لا تزال تقطع به الطريق . الشوارع مغسولة . ذات لمعان أسود مضيء تنعكس عليه أشباح المارة في صورة نادرة الغموض .. ظلال سوداء لا معالم لها .. وهكذا كانت أفكاره .

كل الأمور سارت كما كانوا يتصورون . نعم ..  
 — سنكون آخر مودة في الزواج والأزواج والمعيشة ..  
 — نعم .. وفي طريقة الحياة نفسها ..  
 — نعم .. سنعيش حياة عصرنا .. سيكون حبي لك وحدك  
 ولا ثالث لنا ..  
 — حتى ولو كان الثالث بسبينا .. طبق العسل هذا لا يكفي إلا  
 اثنين ..

— لا بد أن يكون لنا جدول .. عمل صباحي وعمل مسائي  
 ووقت للقاء في المنزل .. ووقت للقاء في الخارج ووقت نستقبل  
 فيه الضيوف ، ووقت نذهب فيه إلى طيب الأسنان ، ووقت يلزم  
 كل منا ألا يرى صاحبه ولا يكلمه حتى ونحن في المنزل .  
 — نعم نعم .. لم نعد سادة للوقت ولكن الوقت هو السيد .  
 ونحن كزوجين نالا أعلى قسط من التعليم وعرفا أعلى قدر من  
 التجربة يجب أن نرسم وجه حياتنا .. هكذا .. أنا وأنت أولا ..  
 وبعد ذلك .. يعدّها الله ..

وأصبح البيت بعد ذلك نموذجا للنظام والسعادة . كل شيء  
 بجدول حتى ساعات اللقاء . ولعل أقرب الساعات إلى الطبيعة في  
 هذا البيت هي تلك الليالي التي تستقبل فيها زوارها من زملاء  
 وزميلات فيعج البيت بالضحك والثروة وتنحل عرى النظام نوعا ما  
 فيصبح الإحساس بالحياة ذا لذة غريبة الطعم مثل لحظة العري في  
 الحمام قبل أن نصب الماء على أجسامنا .  
 وزادت المدخرات بمرور الزمن وسددت كل ( الأقساط )

قلَّ العناء المادى . وأخذت الحياة لونا من الاسترخاء لم يشعر به الزوجان لأنهما كانا منغمسين فيه .

وكان قد مر على زواجهما ثلاثة أعوام ولم يقتنعا بعد أن يكون معهما ثالث .. منهما ..

كان كل منهما فى قرارة نفسه يتمنى لو ضجر الآخر فى هذا السباق الذى فرضاه على نفسيهما . كان هو بانتظار أن تبدأ .. وكانت هى كذلك . لكن كثرة المشاغل وساعات اللقاء الصافى ووفرة الرزق جعلتهما ينسيان الأولاد فترة أخرى من الزمن ..

ونظر وهو منزو فى ركن عربة التاكسى إلى الشارع فرأى أسرة عائدة — لعلها من زيارة — وقد ساروا يصخبون . أم وأب وثلاثة عليهم مظلة من السعادة . يضحكون بكل قلوبهم وأفواههم . وعادته أفكاره ..

ولما اعتلت صحتها ناوشتة الوسوس : « ترى ماذا فعل بها البحر الآن ؟ ! » . زاد شحوبها وبدأ ضعف جسمها الضئيل .. « لعلها فى الخارج تستطيع أن تعرف سر ذلك » ، وخاف عليها وقررا أن يذهبا إلى الطبيب ..

دخلت وحدها وظل هو فى حجرة الانتظار . علل لنفسه ذلك بأنه لا يستطيع أن يقف وراء البرافان وهى تكشف ولا يستطيع أن يرى يدي الطبيب وهو يتحسس جسمها .. ولو أنه أمين !! ولم يكن يعرف ما بالداخل ..

قال لها الطبيب بعد وهلة :



— هل أنت آنسة ؟

فضحكت معتزة مستحبة وردت وهى تمضغ كلماتها :

— بل زوجة !!

— حسن .. إنك أم ..

وضحك فى تشكك وحملق فيها .. فهذا الخبر أصبح يحزن  
الغالبية العظمى جدا من الناس فهل هى مع الغالبية أو مع الأقلية ؟!  
ولمت نفسها وخرجت . وقابلها زوجها فإذا هى شاحبة الوجه  
وفى الطريق تكلمتا همسا ، لكنهما عندما وصلا إلى البيت وتناولوا  
عشاء جيدا وأويا إلى المخدع أحسّا أن كل شىء يمشى فى طريقه  
الطبيعى خصوصا وأن تجربة التخلص من الجنين بادية الخطر على  
صحتها الضعيفة .

\* \* \*

— كيف تتركين طفلا عمره عامان وتسافرين إلى الخارج ؟!

— بعثة يا حبيبى .. التضحية سبيل المجد .. هكذا  
علمونى .. وعلموك أيضا ..  
فتأوه وسأل :

— لكنها سنتان يا عزيزتى ..

فأكملت فى ابتسام واعتزاز :

— وأعود إليك دكتورة ..

— لى الشرف . وهذا لن يغير وضعك كزوجة .. أقصد

درجتك فى البيت . وكان واجبا أن تتأخر ما دمت تضميرين نية  
السفر .



التضحية سبيل المجد . هكذا علموني ???

— الذى حدث كان مفاجأة مثل مفاجأة الحمل تماما ..  
دكتور أخبرنى بهذا .. ودكتور أخبرنى بهذا .. والمسألة مؤلمة فى  
الأول وكل شىء يعتاد ..

\* \* \*

بدرت من عينيه دمعة . كان لا يزال فى السيارة يحملق فى  
جمرة السيجارة فى يد السائق . وعندئذ أتاه صوت السواق يسأل :  
— هل تحب أن نصل عن طريق هذا الشارع أو تفضل إن  
نصل عن طريق هذا الشارع ..

فرد الزوج بإهمال :

— كله يوصل ..

فاستطرد السائق :

— لك حق . المهم السلامة . وأنا الآخر أريد أن « أجرش »

العربة بعد هذا المشوار ..

وأحس الزوج أن السائق يستدر كلامه . عنده شىء يثقل صدره  
ويريد أن يفيض به لأى إنسان . ومن الخير أن يكون غريبا . فسأل  
الزوج السواق :

— لماذا ؟ الوقت لا يزال مبكرا .

فتنهذ السائق :

— لا .. أصل الست تعبانة .. « أجرش » بدرى من أجل

خاطرها .

— عندك أولاد ؟

— نعم . لكنى أشعر إذا مرضت هى أن أولادى كلهم مرضى .. لماذا ؟

وعندئذ هتف الراكب :

— وصلنا .. الباب إلى اليمين !!

\* \* \*

وجد مصعد العمارة معطلا . استجمع قواه وضعد السلم فى هدوء . كل درجة كانت تحدثه عنها . كأنما صباها معا ووضعها هنا معا .. « ماذا تفعل بنا الساعات » ووقف على البسطة الأولى ليسترىح . ومن خلال الأبواب ولو أن الوقت متأخر كانت تفوح رائحة ( الأمن ) .

وعند البسطة الثانية سمع صوت أم تنادى . وعند الثالثة كان السكون شاملا . كانت الأشياء نائمة .. حتى صفائح القمامة استلقت حولها القطط .. لا تموء !!

ودق الجرس . جرس باب شقته . فلم يسارع أحد بأن يفتح .. كانت الخادمة فى الداخل . وعندئذ رجح أنها نامت فأخرج من جيبه مفتاحا وفتح . ودخل متسللا . لكنه ما لبث أن سمع هناك ضحكة .. لرجل .. فارتاع .

لكنه وجد الخادمة فى الطريق إلى الباب وعلى وجهها طمأنينة سعيدة وبادرته قائلة :

— أخى هنا . وصل أمس بعد سفرك إلى الإسكندرية

وتنهّد الرجل وقابله بالترحاب ثم سأل عن ابنه :

— أين ( وجدى ) يا دادا ...؟

— فى الفراش . نام فى الساعة المحددة كالعادة . حسب  
الجدول .

دخل الأب وألقى نظرة سريعة على الفراش ثم عاد ليقابل  
الشاب الريفى الذى نزل منذ الأمس ضيفا على أخته وقرر أن يعطيه  
أكثر مما يطلب من أجل البسمة الصافية التى تحلى شفتى  
( وجدى ) ابنه ..

لكنه وجد شيئا لم يكن يتوقعه ..

كل شيء محزوم .. كل شيء يخص هذه الفتاة .. إنها  
ستسافر هى الأخرى فى « بعثة » لكنها داخلية .. كانت تحلم بها  
بطريقة أشد شوقا وواقعية من حلم تلك السيدة التى سافرت ،  
بأبراج الجامعة الأخرى فى الخارج ورسالة الدكتوراه ... رسالة  
الزواج فى القرية !!

\*\*\*

أراد أن يقول شيئا ولكنه لم يجد . ولما كان لا بد له من النطق  
فقد نطق . لكنه تمتم وهمهم . وفرّ إلى الداخل حيث يرقد وجدى  
فى فراشه .. مال عليه وقبله .. أى عذاب !!  
وتذكر أمه التى لا تزال فى البحر . فى طريقها للحصول على  
الدكتوراه فى « التربية وعلم النفس » ..



نظرة عبر الحقول

بقية الحقول وقد زحفت عليها المساكن يراها ممتدة أمام عينية . جرداء خاوية فيها نباتات لا تزال تقاوم على قنوات جف من قاعها الماء .. وجنادب تصرصر تحت النجوم وهو ينظر من نافذة جانبية ظهره إلى الباب كأنما يتسمع بأذان فيه تلك النقرة القلقة المستعجلة التي تعلن عودة أمه .

إنه يتذكر حوادث اليوم المنصرم . وعبير شهر « مارس » يأتي إليه ضافيا كأنه تخطى الحدائق أحيانا وأحيانا أكثر يحمل إليه رائحة ماء الغسيل ووقود الأفران والمطابخ من هذا الحى الذى يضم طائفة واحدة من العمال .. هم سائقو وكمسارية الترام وهو ابن أحدهم . صورة أبيه على الحائط بملابسه الرسمية لا تزال معلقة تفيض بالشباب والأمل التقطها لنفسه ثم كبرها وبروزها عقب تسلمه عمله .. وعلقها على حائط كل مسكن سكنوه .. أمه لم تعد حتى الآن ..

ونقرتها المستعجلة على الباب لم تقع بعد وهو لا يزال تحت وطأة ذكريات يوم ولّى . وهو ينظر إلى هذه الأرض الفضاء بعين عاتبة كأنه يحملها بعض أوزار ما أصابه .

\* \* \*

كان يصعد سلم المدرسة في هذا اليوم وكل التلاميذ وراءه لأنه أول طالب في الطابور بحكم طوله بينهم ، ولم يكن في تمام وعيه . يكاد يترنح من النوم لأنه لم ينم طول ليلة أمس من صوت بات يزعجه .

وبعد بضع درجات صعداها سمع ثلاثة خلفه مباشرة يضحكون ضحكة لم تستر ما فيها من سخرية . وأنكر أول الأمر أن يكون هو هدفا لهذه الضحكة لكنها حين تكررت لوى عنقه ونظر إليهم فضبط في أعينهم ما أكد شكوكه .

وانتهى الأمر وتفرقوا في المقاعد وجلس في مكانه المعتاد في الركن الأيمن من الفصل .

ولم يدر لماذا استمرأ اليوم جلسته . أحس كأن مقعده مبطن بالقطن .. أحس أن الخشب ليّن وأن ملقّي الحائطين إلى جواره يكون ركنا هادئا منقطع النظر . لا يصل إليه شرح ولا نقاش ولا حتى صوت الجرس إن دق ..

عاودته هذه الفكرة وهو ينظر من النافذة الجانبية عبر الحقول وفي النسيم شيء من الرطوبة وفي العين شيء من الفتور . وإخوته راقدون على حشية مفروشة على الأرض في مكان مقابل لصوان الملابس ذى المرايا الخارجية . وعندما حانت منه التفاته رأى في المرأة خيال الحشية المفروشة وعليها النائمون وقد تضاعف عددهم فخيّل إليه أنهم ستة ف شعر بالخوف وألقى نظرة على صورة أبيه بالبذلة الرسمية ووجهه النشوان بخمر الشباب .

وكاد يتصور أنه ينظر إليهم من أعلى نظرة الراعى الذى لا يغفل .

ثم عاد يتسمع إلى طرقة الباب المألوفة حين تأتي أمه . ولما تأخرت عن الميعاد عاد هو إلى ما كان فيه .

فهو الآن فى الحصبة الثالثة من يومه المدرسى وقد أحاط به الدفء وشاع فيه الخمول . صوت المدرس يأتى إليه متقطعا كأنه من راديو على موجة غير مضبوطة .. أو يد تعبت بالمفتاح . لكنه على كل حال ينقله من منطقة إلى منطقة . نور وظلام على التعاقب . وعندما يصير فى الظلام يستشعر طمأنينة أكبر .. من خلالها رأى ليلته الماضية رأى العين . وسمع الصوت الذى حرمه النوم حتى الفجر يتصل وينفصل بصوت المدرس لكن هذا الصوت تحول فجأة إلى صوت جديد أشبه ما يكون ببلونة تفرق أفاق عليها من نشوته أو من خموله فإذا بها منبعثة من خده والمدرس واقف أمامه بعد أن لطمه ليستيقظ وقفة من فرغ من عمل لا يحبه ودوت ضحكات التلاميذ . وتلفت حول نفسه بحركة من يستطلع مكانا لكن يد المدرس قادته برفق إلى حيث يجب أن يكون وأخرجه من مقعده قائلاً له :

— اذهب إلى دورة المياه وصب على رأسك ماء ثم ارجع .. يا كسلان !

وشيخته ضحكات آلمته أشد الإيلام ليس فيها طلاقة وصفاء هذه الضحكات التى تأتي الآن من بيوت الجيران عبر النوافذ

الفرحة بالنور الجديد فقد وصلت الكهرباء أخيراً إلى هذا الحي المنعزل وإن لم تدخل حتى الآن هذا البيت الذى يسكنه .

\* \* \*

وألقى نظرة إلى أخوته النائمين وعاد ينظر إلى الفضاء .

« ماذا تقول هذه الجنادب ؟! »

وسأل نفسه هذا السؤال وجعل يتصور أنها شكوى أو مناجاة فليس صوت يصدر من حى بدون دافع . وخيل إليه أن نقرات أمه القلقة قد رُتت على الباب لكن سرعان ما تبين أن هذا وهم .. ونظر إلى مكان الحشية المفروشة على الأرض والتي ينظر إليها أبوه من عليائه . من خلال البرواز المذهب الذى يحيط بالصورة . لقد كان منذ شهر فى مكان هذه الحشية سرير من النحاس .. باعوه .. عليه ذكريات أبيه رحمه الله . ولم يلبث أن نقله نحاس السرير بلمعانه إلى دورة المياه فى المدرسة من جديد . ساعة وقف فيها صباح اليوم الماضى بعد أن طرده المدرس من الفصل . لم يدر لماذا رأى شبحاً عظيماً بين إحدى الحنفيات النحاسية الصفراء وبين السرير النحاسى الذى كانوا يملكونه شبه من علاقة الأقارب .. رأى ذلاً يخيم على معدن السرير كأنه مغترب حين حملة « البياع » ذلاً قريب الشبه جداً من إطراق هذه الحنفية التى تتسرب منها نقط كأنها دموع .. كأن اليد التى طرقت هذا السرير قد صنعت هذه الحنفية من سبيكة واحدة وفى موضع السرير فراغ



يطل عليه الأب .. وحول الحنفيات كلها سكون جعله واقفا يفكر .. « لماذا أنام في الفصل فأصبح ضحكة للتلاميذ ولماذا كانوا يضحكون منى وأنا صاعد السلالم ؟! » .

وبيديه الذى يبحث وضع يده على البنطلون من الخلف فأحس بقطع كبير فيه . عندئذ ذهب عجبه . لكنه طاف فى مكان آخر .. ما سبب هذا القطع ؟!

ودخل إلى المرحاض حيث استطاع أن يعاين ويرى . فإذا بخرق كبير على مقربة من نهاية فخذه لو رآته أمه . هى نفسها — وهو يصعد السلم لضحكته منه مثلما فعل التلاميذ .

\* \* \*

إخوته الثلاثة ينامون على الحشية وهو واقف . لم تعد أمه حتى الآن . وشعر أن الجو قد بدأ يتغير فحمل إليه شحنة من الرطوبة . وسكنت الجنادب كأنها استغرقت فى النوم فأقفل نافذته وأخذ مجلسه على المنضدة الصغيرة التى تذكره دائما بمناضد الامتحانات وجلس يذاكر فى موضع يستطيع فيه أن يرى الحجرة من جميع نواحيها . ظهره إلى الباب وإلى اليمين الإخوة على الحشية والأب من أعلى ينظر إليهم وعلى مرأى منه فى ركن مقابل شماعة تحمل ملابسهم جميعا وبين هذه الملابس تتدلى بنطلونات لأعمار متفاوتة ليس فيها ملابس نسوية سوى قميص أزرق بلا أزهار لأمه التى لم تعد حتى الآن .

بين يديه كتاب التاريخ والمصباح على مقربة منه وهناك صورة  
لصلاح الدين تملأ الصفحة حمله فيها بإعجاب بُرغم متفتح  
عطشان دائما لصور البطولات . وحضرته صورة المدرس حين  
يندمج في دوره في وصف المعارك فيفقد كثيرا من وقاره ويكاد  
يتواثب وهم في كراسي الدرس يحركون أرجلهم كأنهم يحنّون إلى  
ظهور الخيل .. أيامها .

ولم يلبث أن سبح خياله حتى وصل إلى صورة الدم .. فعرض  
شفته وأفاق .. نظر كسيرا خلوا من الحماسة إلى صورة أبيه في  
بروازها المذهب .. وهز كتفه .. كان يقول في نفسه : « وهل نجا  
هذا الرجل من المصير الدامي ؟! فقد كان مجرد قاطع تذاكر في  
ترام القاهرة . »

وتذكر تاريخ والده القصير . حكى لهم أن أمه « جدتهم »  
بعثت من الزغاريد يوم أعفى من الخدمة العسكرية أيام الملك  
لا لأنه كان راعيا لأمه الأرملة مثلاً أو لسبب آخر .. لا بل لأنه كان  
قصيرا . وبعدها بقليل لبس البدلة الرسمية التي يرتديها الآن في  
الصورة أمام عينيّه . ثم تزوج .. وبعد الطفل الرابع لحقه مصيره  
الدامي اجتاحه حيوان جامح كان يجري إحدى العربات في الشارع  
والأب على سلم الترام يزاوّل عمله فسقط بين العربتين .

« لماذا لم تعد أُمّي حتى الآن ؟! » .

ونظر بعينين دامعتين إلى الصورة المعلقة .. ثم إلى بنطلونه

المقطوع وإلى قميص أمه المتدلى فى ذبول مجاوراً لأصغر بنطلون  
كأنه يحميه ..

« ستجد أمى مشكلة هذا البنطلون عندما تعود » .

وأطرق شاعراً بالخجل . ونظر إلى صورة أبيه وشعر بنوع جديد  
من الخجل .. حقيقة أنه يشعر بأنه لا أحد يختار موضع ميلاده ولا  
اسمه ولا لون أبويه .. ولا أحد أيضاً يختار نوع الموت فى  
الغالب .. لكنه يشعر أيضاً بالفرق العظيم بين جثة رجل يصبغها  
بالدم جموح حيوان وبين جثة رجل يموت .. هكذا .. بطلا .  
وعاد ينظر إلى صورة صلاح الدين ، ويتخيل أن أباه مات تحت  
رايته . ولم يكن هناك رابط بين الأمنيتين إلا أن أباه مات مقتولا  
وكانت أمه تخجل من سرد تفاصيل الواقعة .

ثم أطرق على المنضدة . فرش ذراعيه عليها ووضع جبينه .  
عاودته فى هذه اللحظة تفاصيل المشاعر التى غمرته فى الفصل  
وقت الصباح .. الحذر والسكون والصوت المتقطع .. لكنه  
ما لبث أن رفع رأسه . حانت منه التفاتة إلى إخوته الراقدين . على  
وجوههم أحلام فى غموض الليالى . ونظرة أبيهم تجتاز من فوقهم  
إلى حيث مرايا الصوان فتقع هناك لتسبح فى فضاء أوسع . أمهم  
تنام إلى جوارهم بعد أن تعود من العمل . وكم رأى هو هذا المنظر  
فى ليالى الأرق .. ذلك الذى يسببه له حتى الآن صوت متعب  
يخرز أعصابه ويمزقها ويعذبه ويسبب له الخسائر ونظرة أبيه فى

الصورة تسبح فى فضاء الغرفة .. وهو يتنهد ..

ثم أخذ يتصفح كتاب التاريخ .. فراعته أن شيئاً ما قد وقع فيه ..  
هناك صفحة وخريطة قد لحقهما التلف .. وذهل .. ونظر إلى  
بنطلونه المقطوع المتدلى فى انتظار الإصلاح على مقربة من  
قميص أمه . تلك التى لم تعد حتى الساعة .

وشدته من أجوائه المختلفة نقرات أمه على الباب .. فتح .  
دخلت وعلى وجهها علامات تعب لا يخفى حبورا . وفى يدها لفة  
كبيرة لم تفتحها قبل أن تهيب بالنائمين أن يستيقظوا ..  
— « ماذا يا ماما ؟! » .

— تأخرت .. لكن .. هذه أشياء تكفر عن غيابى ..  
ساعدنى فى إيقاظ إخوتك .

وفعل . وفتحت الأم اللفة التى حملتها . كان فيها جاتوه  
وبسكويت . أشياء تخلفت من حفل أقيم فى الملجأ الذى تعمل  
فيه .. قسم على من هناك بالتساوى .. ومن أجل هذا الحفل  
تأخرت وعادت تملؤها الفرحة .

كان الصغار يأكلون فى سعادة وفى عيونهم نوم . أما هو فكان  
فى انتظار اللحظة التى تقنع نفسه فيها بحمل نبال البنطلون إليها .  
فمحال أن يذهب به غدا إلى المدرسة هكذا . وكان مترددا كأنما  
عز عليه أن يفسد عليها وهلات سعادتها تلك الليلة وهى تنظر إلى  
نائها الفرحين بالهدية . لكنه بعد أن انتهى العشاء وناموا .. قال



لها قبل أن تستغرق في نومها والظلام مخيم على الغرفة :  
 — بنطلوني قد قرضه الفأر الذي قرض أعصابي ولن أستطيع  
 الذهاب به إلى المدرسة يا ماما !! ..

هممت في الظلام بمنطق من لا يتقبل الهزائم :  
 — في الصباح سأدبر الأمر .  
 سكت قليلا وكأنه ظل يعاني ولم يخفف من حدة ما به ما سبق  
 أن قاله ولا ما قالته أمه فعاد يهمس :

— وكتاب التاريخ يا ماما !؟

شهرت في خوف :

— وماذا أصاب كتاب التاريخ يا بني !؟

— أتلفه الفأر .. قرض خريطة عليها مواقع عزيزة غالية ..  
 عندنا .. يتكلم عنها مدرسنا الفلسطيني وعيناه مغرورتان  
 بالدموع . فتحت الكتاب الليلة فحزنت حين رأيت ما فعله الفأر  
 بهذه الأباكن .

قالت الأم بعد صمت طويل تسمع فيه نجوى النفس :

— إذن لم يعد الأمر مقصورا على الطعام والملابس .

— لو اشتريت المصيدة كما وعدت ما وصل الأمر إلى هذا  
 الحد .

— ربما كان كلامك في محله لكنني أقدم شيئا عن شيء .





كان مرردا كأنما عز عليه أن يتلف عليها لحظات سعادتها الليلة

كان مترددا كأنما عز عليه أن يتلف عليها لحظات سعادتها الليلة

— وأنا في معظم الليالي لا أنام من صوت قرضه .. إنه سيأكل  
خشب الدولار يا ماما !! لا يجب أن ننتظر ..

— هل تريد الحق ؟ .. عليك أن تترىص له فهذا دورك . يكفيني  
أننى حللت محل أهلك فى كسب عيشنا ، وعليك أنت أن تدافع  
عن ثيابك .. وعن كتبك وفى الصباح نتدبر الأمر من جديد .  
علينا أن نستريح ... لنفكر ..  
لكن الغلام لم ينم طول الليل ..

حلم الأبي

حين استدعاه مدير الفرقة نهض مسرعا واتجه نحو مكتبه .  
 وفي الدهليز المستطيل الذى تحف بجانبه نباتات ظليلة التفت  
 حول أعمدة عريية الطراز — أخذ هذا الممثل الشاب يفكر فيما  
 عسى أن يقال له . وخمّن مقدما ما يمكن أن يقال .. « كلمة ثناء  
 وتشجيع حتما » وربما كلمات يفوح عيبرها مع رائحة السيجار  
 المعطر الذى يحترق باستمرار فى حجرة المدير .

وفى السقف .. سقف الممر .. مصابيح على هيئة نجوم  
 تعلقت بها عينا الشاب لحظة ثم هبطت إلى الأرض حيث النباتات  
 المتسلقة تلتف حول الأعمدة . وأخذ طريقه إلى هناك لا يسمع  
 خطواته فقد كان يدوس بحذائه المخروق على مشاية من السجاد  
 الداكن .

حجرة المدير كعهده بها واسعة أنيقة . وأمام مكتبه مباشرة  
 كرسيان مريحان لجلوس من يجب أن يكون على مقربة منه  
 ونفذت إلى أنفه كالعادة رائحة السيجار كيد معطرة كتبت أنفاسه  
 لبرهة ثم أفاق . والمدير وراء المكتب بملامحه المنهوكة بابتسامته  
 المنسية .

وجلس الشاب على أحد الكراسى القريبة من المكتب فى  
 امتثال مؤمن . فقد كان يعتقد أنه من العبث أن تطابق أعمال

الناس أفكار الفرد . فهو ( واحد ) يعامل مجموعا كبيرا وهو كواحد لا بد أنه يحمل نظرة محددة نسجها الماضي والحاضر ولمسها المستقبل . أما هم كمجموع .. الناس .. فلا يمكن أن يكونوا عدة آلاف من الأجسام تحمل رأسا واحدا يفكر مثلما يفكر ( الفرد ) لذلك فلم يعنه كثيرا أن يخس حقا . وكانت كلمة الشاء ترضيه ولو أنه يعلم أن هذا الشاء وسيلة ، أو خديعة ، أو تعويض . أما إذا كان الشاء مطلوباً لذاته فإن الناس لا شك يخلون به .. إلا في حفلات التأيين ..

دارت هذه الأفكار في رأسه وعيناه مثبتتان على دبوس مذهب في رباط العنق الذي يلبسه المدير . والدبوس على هيئة تمساح .. ولم يلبث المدير أن اعتدل في جلسته ليقول للشاب :

— اسمع يا بنى .. عندي خبر سار لك ..

خفق قلب الشاب لأنه يطالب بعلاوة منذ سنة . ووقع بينه وبين المدير نقاش لم يكن خاليا من المرارة . فقد لفت المدير نظره إلى قناعة الفنان وإلى أنها إحدى السمات الخلقية التي تستوجب التقدم وتكفل المستقبل . وإلى أن « الألم هو النبع السحري الذي يروى نفوس الفنانين » وكان عليه يومئذ أن يقتنع لأن الاقتناع قد لا يكون تقبلا عقليا فقط وإنما قد يكون أيضا نوعا من الامثال يقبله العقل بعد فترة .. وها هو ذا اليوم يستمع إليه .

— عندي لك خبر سار .

لم يرد عليه بل فرك كفا بكف وابتسم في رضا . واستشعر



الدفء من كل جانب .. من مدافئ الحجرة .. وراحة طارئة  
أحلى من المدافئ . وكأنما لذ للمدير أن ينظر طويلا إلى هذا  
الذى صفق له الجمهور وهو الآن بين مخالفه المعنوية ينفخ دخانه  
على مقربة منه فيرسب حول وجه الشاب كبقية ضباب .  
وما لبث المدير أن غير وضعه ومال إلى الأمام ليقول له :  
— خذ هذا الخطاب واقرأه ..

أمسك الشاب بالخطاب ففاحت منه رائحة البؤس ؛ لأنه كان  
تقريراً لواقع قديم منتظر بين شهر وشهر . فهذا زميله في الفرقة قد  
لزم المستشفى . ولن يكون الخبر السار إلا خبر ( ميراثه )  
لكن .. ما الذى سيرثه عنه يا ترى ؟! .. إنه لا يملك شيئاً يوصى به  
لأحد .. لا يملك إلا موهبة يصفق لها الناس وهذه الموهبة لا تورث  
ولا يوصى بها . وحتى إذا بيعت فإنها تفتح القلوب ولا تفتح  
الجيوب .

ونطق الشاب فى حسرة :

— مؤسف جدا يا سيدى أن يتوقف هذا الصديق عن العمل .  
وهز رأسه ونظر إليه نظرة الفنان الذى يشمل قلبه كل الناس .  
وكانه يقول له : « وهل هذا هو الخبر السار » ؟  
غير أن هذا لم يغب عن فطنة المدير وبدا على وجهه المنهوك  
ذكاء وخبرة وسارع يقول له :

— غدا إن شاء الله سنبدأ فى إجراء ( بروفات ) المسرحية  
الجديدة وستقوم أنت بالدور الذى كان منتظرا أن يقوم به

صاحبك المريض وهو دور يعتبر بعد الأول . وبناء على ذلك فأنت نستقف طويلا أمام الجمهور . وهكذا ستجد فرصة أخرى للتقدم نحو مرتبة النجوم . وكلنا نعرف أنك وصديقك هذا من مزاج واحد وهذا هو ما أكدته ( المخرج ) . لذلك فهو يرى — دائما — أن واحدا منكما يغنى عن الآخر ( وأردف في ضحكة ) وكأن القدر أصدر حكما مكررا يوم خلقتما . فقد كان واحد منكما كافيا .. ( ثم ضحك مرحا ) .

كان الشاب يسمع وهو مطرق . ويعجب مما يسمع . لكن .. ليس هنا مجال للنقاش . هنا مجال للعمل .. وقبل أن يقول كلمة كانت على طرف لسانه أعلن المدير انتهاء المناقشة .. وكانت معروفة عند أعضاء الفرقة وهى كلمة « متشكر » يقولها خطفا ثم يمسك بعدها بسماعة التليفون الخاص .

\* \* \*

« أحد رؤساء القبائل فى الصحراء حلم ذات ليلة أن بيته الذى يسكنه أصبح واقعا فى وسط حديقة غناء وأن الماء يجرى فى جداولها بغزارة وأنه أحس بالظما فى منامه فسعى نحو أحد هذه الجداول ليشرب لكنه سقط ميتا وهو عند حافة الجدول . ولما قص رؤياه على ابنه الوحيد الذى يحبه ويعتبره أخا وأبا لم يهتم كثيرا بالأمر . وكانا ساعثذ على العشاء . وناما .. وأصبح الصباح فإذا بالابن يستيقظ على صرخة أمه التى تحمل إليه خبر وفاة أبيه .

وتجتمع القبائل للاحتفال بدفن هذا الرجل الطيب الذى كان بينهم بمثابة قلب عاقل وسط هذه الحياة القاسية .. تلك التى تحتم فيها ظروفها على كثير من الناس أن يكونوا أشرارا بقدر ما هم بسطاء . وبعد انتهاء المراسيم . بدأ الابن يشعر بحزن غريب ألجأه إلى الوحدة وكاد أمل الناس فيه أن يخيب وهو الذى كان أملهم الثانى بعد موت الأب . لكن الابن فى كل ليلة كان يربط بين الموت والحلم . فلماذا مات أبوه فى الليلة الثانية . فهل تحقق شطر من الحلم يستوجب تحقق الشطر الآخر ؟!

وهكذا بدأ يسأل نفسه وهو لائذ بالوحدة : هل تقع دارهم هذه وسط حديقة غناء ؟ .. غير أنها لم توجد بعد فى عالم الحقيقة وإن كانت موجودة بالفعل فى عالم الإمكان ؟!

وبمرور الأيام بدأ يرى ما لا يراه الناس . وبحكم أنه كان يرى أباه فى المنام معظم الليالى فإنه صار يرى حلمه نفسه .. حلم أبيه . فأصبحت هذه الرؤيا إحدى سمات أحلام الابن حين يقابل أباه فى المنام . شىء ملازم لشخص الأب كأنه جلابه . ثم استقل الحلم عن صاحبه وأصبح له شخصية منفردة فلم يعد الابن يرى والده مع حلمه بل أمسى يرى الحلم بدون والده وبذلك أصبح حلمه الشخصى بعد حين . ولما ألح هذا الخاطر عليه بدأ يعمل شيئا عجب له الناس أشد العجب . بدأ يحفر ليجث عن الماء والناس يعجبون لما يفعل .

\*\*\*



ثم استقل الحلم عن صاحبه وأصبح له شخصية مفردة



من بين أدوار هذه القصة أخذ الممثل الشاب دورا جديدا .  
وبدت أمام الجمهور على المسرح صحراء بلا جنة ممدودة في  
اتساع شاسع . وأمام البيوت — وهى على الأفق — أكوام من التراب  
تدل على أن فى المكان حفرا وبحثا وتنقيبا .

وعندما ظهر الممثل الشاب ليؤدى دور من يريد أن يحقق حلم  
أبيه راعه مظهر المسرح . وكان عليه أن يقف برهة وحيدا فى  
المكان ليلتفت باحثا عن صديقه ( بسّام ) الذى يعتبره عضدا له  
فى هذه المهمة التى يلومه عليها الناس .

وفى هذه اللحظة رأى الصمت يخيم على المشهد المصنوع  
بمهارة على المسرح ورأى الصمت جاثما تماما على الشرفات  
والمقاعد ولا تفوح — كما هى العادة — رائحة عطور ولا سجائر .  
وفى هذه الليلة الأولى للعرض خيل إليه وهو واقف يتلفت حتى يظهر  
صديقه أنه يشم رائحة تراب حادة كالتى تفوح من صفحات  
كتاب طوى عدة سنين حتى كاد يعطس . فتماسك .. حتى ..  
لا يضحك الجمهور .. وكأنما رائحة التراب قد انتشرت من  
الحفر فى الديكور ومن أرض المسرح الذى خيل إليه أنه لم يكنس  
منذ أشهر .

وكان الملقن تحت ( الكمبوشة ) يبدو مثقلا بالنوم فأحس  
الممثل الشاب أنه واقف على حافة هاوية . ونظر إلى الحفر  
المصنوعة على أفق المسرح وإلى السماء التى تسقط بعيدا عن  
الرمال راسمة دائرة الأفق فشعر أنه فى متاهة .



وعند ذلك رأى الشاب شبها عجيبا بين جو المسرح الحقيقى وبين الدور الذى سيقوم به ممثلا له . وما دام مقتنعا بدوره فعليه إذن أن يعزل نفسه عن كل مؤثر خارجى يهدم تصميمه . عليه إذن أن يتخيل .. فعمله كله قائم على الخيال . عليه أن يزج بنفسه من جديد فى عالم الطفولة أو أن يقف على أبواب عالم المجانين فى المسرح مليئا بالناس .. هل يعجز خياله عن ملء هذه الكراسى بالجالسين وأن يستشعر رائحة العطور والسجاير ما دام هذا كفيلا بإنجاح دوره ١٢

وبكل يقين — كالشخصية التى يمثلها — نادى بصوت عال فوفد إليه صديقه الذى دخل مهرولا كأنه يحمل إليه خبرا هاما وقال :

— الناس غير مقتنعين بعملك هذا . إنك تبدد جهدك ولا يراك أحد ..

وعندئذ وقعت عين الممثل الثانى — الذى قال هذا — على الشرفات الخالية فكاد يتهاوى وشعر بياس من ينادى فيجاوبه الصدى وعلى غير انتظار . لكنه ما لبث أن نظر إلى الممثل الأول فرآه منتفشا كالديك المزهو بريشه . يخطو على المسرح بيقين وينظر إلى أعمال الحفر . ويشير إليها باعتزاز وهو يمسح عرقه باليد الأخرى وأخذ يهتف :

— لكن علينا أن نؤدى دورنا ولو لم يرنا الناس .. هناك أحلام لا تكذب .. وحلم أبى من بينها . وهذه الحفر التى تراها هى

أشبه بسفينة نوح يسخر منها الجاهلون ومن لا يعرفون الحقيقة .  
ومن أجل حفظ الجنس البشرى بنيت السفينة . ولو نجحت  
السخرية لهلك الجنس البشرى وخربت الأرض .

— لكن تشجيع الناس يا صديقي بند من بنود العمل ذاته وليس  
شيئا خارجا عنه .. و .. ها أنت ذا ترى ..

وأشار بيده إلى الحفر . وانتقلت يده فجأة إلى الشرفات  
الخالية . لكنه رأى الممثل الأول واقعا تماما تحت سحر الدور  
الذى يقوم به وسمعه يهتف وهو يخطو على المسرح فى خيلاء من  
تراه ملايين العيون وتصفق له ملايين الأكف ..

— أنا لا أريد أن أكون ساحرا حصيلة أعمالى إعجاب أبله .  
ولكنى أريد أن أكون عاملا حصيلة أعمالى بناء ينسى بانيه ويعيش  
المبنى جيلا بعد جيل . والعد يبدأ (بواحد) والأعمال الجادة يقتنع  
بها القلة ثم يتكاثرون وقد لا يكونون من جيل واحد . وبعض الأحلام  
وحى . وحلم أبى بعض هذه الأحلام .

وعند ذلك خيل إليه أنه يسمع تصفيقا فنظر إلى الشرفات  
والتمعت فى عينيه الفرحة . ورأى صديقه بريق عينيه فسرت  
العدوى إليه مثلما تسرى عدوى الغناء من الصوت العظيم إلى كل  
السامعين . وانفصل بذلك الممثلان عن عالمهما الأصلي وبدأ  
يتحركان كشخصى الأساطير . وأفاق الملحن من خموله فأخذ  
يرمى بالكلمات فى حماسة العبادة يرتلون دعاء . وبدأ عالمهم

يموج ليس بسحر الفن وحده بل بسحر العقيدة .. عقيدة أن يؤمن كل بدوره فليس هناك فرق بين المسرح الصغير في قرية والمسرح الكبير في مدينة والمسرح الأعظم الذى يشمل الأرض كلها .. وبدأت الصحراء على المسرح وكأنما تحولت إلى جنة . إذ استطاع الممثلان اللذان اعتنقا دورهما أن يريا الحلم وقد تحقق . وكان آخر ما هتف به الممثل الأول أن قال بحماس وبصوت مرتفع :

— انظر .. انظر يا صديقى .. هذا هو الماء قد تفجر من الحفر .. ما أروع هذا .. إنه يبدو فى غزارة مياه الأنهار .. انظر .. لم يبق لنا إلا أن نزرع ..

وعندئذ وضع الممثل كفيه على أذنيه لأنه خيل إليه أن التصفيق يدوى كأزيز قريب من الأذنين .

\* \* \*

ولم يدر بعد ذلك بما حدث . فقد ألقى نفسه ممددا على أريكة فى حجرة المدير . وأفاق على رائحة الدخان المعطر . وعندئذ قال له الرجل بوجه بشوش :

— كنت فى خلفية المسرح ورأيت كل شيء .. رأيت أنك

مقتنع بدورك على المسرح وأنت تمثل دور شاب مقتنع بدوره في الحياة . فنجحت . بصرف النظر عن كل شيء . وأنا واثق أن العدد القليل الذي شاهدك الليلة سيكون ( شاهدا ) عادلا يسمع إليه الجمهور . وغدا مساء ستغص الشرفات بالناس . وهذه هي تجربتي من قديم . وغدا ترى أيها الشاب الرائع !..

سَيَعُودُ الْإِبْتِسَامَةُ



الموسم موسم عواصف .. ومع كل فالتبيعة لا تعترف  
 بالاستقرار .. فكان عليه أن يركب القارب هو وأخوه وينزلا إلى  
 البحر .. أخوه أصغر منه ويريد أن يتزوج عاجلا . وكل هموم الأسرة  
 فى هذه الفترة هى تدبير أكبر مبلغ من المال لأجل حياة مستقرة فى  
 بيت مستقل لهذا الشقيق الصغير ..

هما يعلمان أنهما يبدلان جهدا أكثر من المألوف . لكن  
 جهدهما كان موضع إعجاب الصيادين جميعا حتى بدا القارب  
 الذى ينزلان به إلى البحر وكأنه قد اكتسى ملامح إنسان .. شجاع  
 .. مفكر .. لا تحكمه الدفة والشرع والمجاديف بل يحكمه شىء  
 أعلى من كل هذا . وهكذا بدا القارب لعيون الصيادين لكثرة ما  
 يعود به من خيرات والشقيقان عليه متعبان لكن ابتسامة ما تتلاعب  
 تحت الشوارب المهمة يكمن فيها سر سعادة لا يعرفها إلا  
 المتعبون .

\* \* \*

البحر بادی السكينة فى هذه اللحظة التى يدلف القارب فيها إلى  
 الماء . بلونه الأزرق فى لون السماء والماء معا . طلى حديثا بالزيت  
 وانعكست عليه أشعة الشمس المائلة نحو الغروب فبدا لعين الشقيق  
 الأصغر وكأنه ( عريس ) مثله يتهادى على الصفحة

الهادئة . وخيل إليه أيضا — إلى الشقيق الصغير — أن هذا البحر يحمل اليوم قلبا مثل قلب الإنسان يعرف عن طريق لغة سحرية ما تنوء به قلوب الآخرين . وعن طريق قلبه هذا سيعطى الجائع سمكا ويعطى العريس مهرا وربما — بطريقة قد يعرفها الصياد — يعطى العطشان ماء !!

وهكذا دلف الشقيقان نحو الماء . وتوغل بهما القارب . وبدأت الشباك تعمل . وأصوات الصيادين من حولهما تتناغى فى كل اتجاه .. أغنية أو تحية ترسل بالأيدى أو الصغير بالفم . والهواء يحمل مع رائحة التحيات رائحة البحر والأعشاب ثم تلك الرائحة التقليدية التى تفوح من الشباك والقوارب والتى ألفتها أنوف الصيادين حتى كادت لا تشعر بها .

وكان سيرهما دائما إلى الأمام . وكانت الشباك تخرج من الماء فى كل مرة بمزيد من الرزق . وأخذ الشقيق الأصغر يغنى . أغنية حب نابذة من موطنهما الأصلي عرف سرها وروحها وجربها الشقيق الأكبر فابتسم له وشاركه غناؤه بصوت أجش يوحى بالجهد والتعب ..

\* \* \*

ولم يفطن الشقيقان إلى ما حولهما .. حتى غروب الشمس لم يفطنا إليه .. وكان هناك قمر صغير يمويه بنوره صفحة البحر بدا لهما أكثر إيناسا من أضواء الشاطئ لأنها بالنسبة لهما لم تعد

موجودة .. لقد أوغلا في البحر كثيرا .. ولم يشعرا بأن الصيادين  
جميعا قد عادوا أو حاولوا أن يكونوا على مقربة من الشاطئء فإنهم  
ما داموا يرون نوره لا يخافون المخاطر ..  
قال الشقيق الأصغر لأخيه فجأة :

— ألم تلاحظ شيئا ؟

فرد أخوه باطمئنان نسبي :

— ولكن ماذا نفعل .. ها نحن الآن في طريقنا إلى  
الشاطيء .. لقد لاحظت فعلا أن الموج بدأ يرتفع ..

— موسم عواصف !!

فقال الأكبر :

— الطبيعة لا تعرف الهدوء . والغرق قد يحدث بلا عاصفة .  
ثم بدا له أن يسلى شقيقه وهو أيضا عمل لا يخلو من تسلية  
النفس فصار يقول له :

— كنت بين فترة وأخرى أقول في نفسي ما دام الرزق مواتيا  
فلنعمل فأخى لا يزال محتاجا إلى أشياء كثيرة .. حذاء جديد  
وراديو تتمتعان به أثناء السهرة لأنك لن تأخذ معك راديو العائلة  
وإلا احتججت أمنا التي لا تنام إلا على صوته وهو خافت .. وأشياء  
أخرى كهدايا للعروسة .. آه .. أنوار الشاطئء قد بدت .. ألا  
تحس بالاطمئنان ..

ولم يرد الأصغر . كان القلق مستوليا عليه وكان محقا في  
ذلك . فالموج أمسى عاتيا والريح شديدة الهبوب . وكان عليهما  
أن يطويا الشارع وإلا انقلب القارب . وفعلا ذلك بسرعة . كانا



المال مثل الأظفار تقص وتطول . ثم تقص وتطول



يشعران أنهما فى طريق كله مرتفعات ومنخفضات . وبدأ  
اتجاههما إلى الشاطئء يضطرب بفعل تلاطم الموج وتحول الريح  
لكن الأخ الأكبر أخذ يخلق فى هذه المخاطر جواً من المحتمل  
أن ينسى شقيقه حقيقة الأزمة فاستطرد فى هدوء لكن بصوت مرتفع  
حتى يسمع أخوه :

— وكان ضروريا أن تهدي إلى العروسة زجاجة عطر . ذلك  
يعجب الفتيات .. ذلك ما أخرنا حتى الآن .. وستأخذ هذه  
الزجاجة لتريها لكل صديقاتها .. هه .. لكنها لن تفتحها ..  
ستشمها من الخارج فقط حتى تفتحها ليلة العرس ..  
— عم تتكلم يا أخى ؟.. إن كثيرا من السمك سقط فى  
الماء ..

رد الأكبر بفلسفة من عاشر البحر :  
— نعم نعم . إننى أرى .. لكن المال كما تقول الأمثال مثل  
الأظافر تقص وتطول ثم تقص وتطول .. ليس مهما .. المهم أن ..  
آ ..

\*\*\*

لم يسمع أحدهما صوت الآخر ؛ لأن صوت الريح كان  
شديد الهبوب ولأنهما كانا فى الماء .. لقد انقلب القارب . كان  
كل منهما يفكر وحده . كيف يوصل أفكاره إلى أخيه ..  
الليل والريح ضد أى نداء لكن كان فى ذهن كل منهما فكرة  
مهمة هى .. ألا يدعا القارب يغيب عن عيونهما . ومن حسن  
الحظ أن اتجاهه كان نحو الشاطئء فإن هبوب الريح



كان فى هذا الاتجاه . ولذلك فلم يكن توغله فى البحر إلا بفعل موجة أو عدة موجات كانت تعوق سيره إلى الشاطئ .

وخطر للأخ الكبير خاطر بسيط لكنه كان على غاية من الأهمية . خطر له أن يحاول لمس القارب بأى طريقة ولو كلفه ذلك حياته لأنه من الجائز جدا أن تدفع به موجة إلى ناحيته فيصيب جدار القارب رأس الصياد . لكن ذلك لم يعوقه عن تنفيذ الفكرة . وحاول .. وتحسس المكان الذى يقصده من القارب فلم يجد ما يريد . وعندئذ صرخ بأعلى صوته ونادى أخاه . كان عليه أن يكون قريبا منه فإن الفكرة لا يقدر واحد بمفرده على تنفيذها . وسبح أخوه نحو القارب . كان شبابه معوانا له . وكان يعلم تماما أن حياته وحياة أخيه معلقة بالارتباط بالقارب ؛ لأنه الآن هو السبيل الوحيد الذى يوصلهما إلى الشاطئ فالسباحة وحدها ليست مضمونة العواقب فقد يصيب أحدهما التعب .

كانا يدوران حوله كأنه مركز فلك . تربطهما به جاذبية لم يستشعرا مثلها فى يوم من الأيام . حتى فى أول هذه الرحلة ساعة كان يتهادى تحت شمس آخر النهار بلونه السماوى . كان تحت الظلام والخطر أكثر نجلا وأعظم قيمة وأعلى مكانة .

وهتف الشقيق الأكبر مناديا أخاه عندما رآه يستوى راكبا فى فرخ شديد على هيكل القارب — هتف قائلا

— ابحث عن طرف أى خبل فذلك ضرورى لنجاتنا .

ورد الأصغر

— لم أجد .. ابحث أنت بدورك .  
وتقدم مرة أخرى وصار يتحسس بكل ما يقدر عليه وأخيرا  
صرخ فى فرح :  
— هذا طرف جبل ..  
رد شقيقه :

— عظيم .. سأنزل ونقود القارب معا بواسطة إلى الشاطئ .  
فإنى أرى النور يقترب ..  
— لا .. ابق حيث أنت . استرح قليلا حتى إذا تعبت أنا  
أخذت أنت دورك فى الماء حين أكون أنا على ظهر القارب .  
وسبح الأكبر . لم يكن يدري إلا أنه فى حلم . عيناه متعلقتان  
بأنوار الشاطئ التى تبدو وكأنها فى الجنة . ولم يكن يحس  
بحقيقة المشقة لأن العمل كان ضروريا . وبعد مدة ناداه أخوه :  
— هل آتى لآخذ دورى ؟ ..  
— تعال ..

وأخذ دوره . أمسك بالحبل الذى كان فى يد أخيه . لكن  
أخاه لم يصعد إلى ظهر القارب . بل بقى فى الماء بجانب الآخر  
دون أن يبذل مجهودا .

وحدثت معونة لم تكن فى الحساب . فقد اشتد تدافع الموج  
إلى الشاطئ فكان ذلك معوانا لهما .. ولم تكن الأمواج التى  
وقفت ضدهما أقل معونة لهما عندما كانت فى اتجاه رحلتها .

ولم يصدقا ما حدث عندما تم سحب القارب إلى الشاطئ .  
كان الشاطئ هادئا . نظر كل منهما إلى الآخر دون أن يتكلما ثم  
جلسا ليسترخيا . وبعد قليل فحصا القارب فوجدا التلف قليلا ..  
همهم أحدهما :

— ممكن أن يصلح كل هذا ..  
وساد صمت .. لكن .. عاد صوت الصغير يقول ، وبشبه  
مرخ غامض :

— إنك لم تتكلم عن السمك ..  
قال الأكبر :

— قلت لك .. إن المال .. مثل الأظافر .. كلما قصت  
عادت فطالت .. غدا .. أو بعد غد سنعود معا بشباك جديدة ..  
وننزل البحر .. ونغني .. وسنعمل جهدنا على أن نشترى للعروسة  
زجاجتين من العطر .. بدل زجاجة واحدة .. أريد منك فقط أن  
تبتسم .



أشواق



كان الرجل يجهش بالبكاء بطريقة لا تتناسب مع مظهره القوي .. الدموع شيء غير مألوف بالنسبة لوجهه القاسي . وفي يده رسالة وصورة كان مأمور السجن قد قدمهما إليه لتوّه . بعد أن اطلع عليهما كما تنص اللوائح والقوانين ..

وأخذ فك الرجل يرتعد وهو يقبل صورة غلام في الرابعة عشرة من العمر . سمح المحيا باسم الثغر ، كأن شيئاً من هموم الدنيا لم يطف بقلبه . وكأن والده ليس نزيل السجن .

وكان يثبته في الرسالة شوقاً ويطمئئنه كما هي العادة المتبعة . ويخبره أنه نال الإعدادية بتفوق ، وأنه سيدخل المدارس الثانوية بإذن الله ، وعلى الصورة من الخلف إهداء لوالده يسيل حباً ورقة .

وانتقل خيال المأمور إلى الرجل في نفس الليلة لكي يسهر معه ويتصور أي سرور وحنين يحيطان بقلب هذا الأب . ثم تذكر شخصيته . إنه يعرفه تماما . مشهور بالقسوة بين زملائه . لكنه إذا ما انعزل عنهم بدا كثير الهموم ، وربما بكى في صمت لكن سلوكه العام يغلب عليه الطاعة .

عند المأمور يتصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه في

داره ويشارك ابنه فرحته ، لكنه عاد فمال إلى أن الفرح والحزن يتضاعف إذا ما كان الناس بعيدين عن أحبابهم .

ومنذ ذلك التاريخ لم تأت للرجل رسائل . لكنه عاد أكثر سهوما ووجوما بعد عدة ليال . كأنما استنفدت الفرحه كل ما عنده من طاقة . فبدأ عصبيا أكثر من المألوف قبل ورود هذه الرسالة .. كأنها أيقظت فيه شيئا كان نائما . كذكرى حب جريح يعانيه شاب في مقتبل العمر ..

على أنه كان قد جاوز الأربعين بكثير . ولم يكن يبدو عليه روائح الأبوة لأن تكوينه كان يتنافى مع الحنان ، ففي فكه العريض ونظرة عينيه الشاردة ولونهما الذى يذكر بلون الحديد .. قسوة .. وكانت النظرة مثل طرف الخنجر . فضلا عن صوته الأجش ولونه الكاوى .

\* \* \*

كان قد تلقى الرسالة الأولى فى أوائل صيف . وانقضى الصيف ..

وفى أوائل شهر أكتوبر حمل البريد رسالة أخرى إلى الرجل .. وفتحها المأمور كالعادة ..

رأى فيها صورة شاب وسيم الطلعة لا يمكن أن يتجاوز الثانية والعشرين . على وجهه آيات النجاة ، وعلى ظهر الصورة إهداء إلى والده الحبيب . ومع الصورة رسالة كتبت بخط أنيق دقيق

جدا يحرص كاتبها على ألا يترك في الورقة مكانا أبيض كأنه يريد أن يطيل الحديث مع أبيه . ويقول فيها ما معناه : إنه تخرج في كلية الحقوق بدرجة جيد جدا . وإنه والحمد لله عين وكيل للنائب العام في إحدى المحافظات ، وإنه سعيد بهذا التناقض الذي وقع في حياتهم لأنه سيدافع عن الحق . فهو يعتقد على الرغم من كل شيء أنه ابن رجل شريف ؛ لأن الذي وقع لأبيه لم يكن إلا دسياسة راح ضحيتها .

وأخذ المأمور يفكر في هذا الموقف المتناقض . فهو يعلم أن جريمة هذا الرجل اختلاس لأموال الدولة . ولا يزال هذا الرجل حتى اليوم يقول كلما حانت فرصة للقول : « لو كنت شاركت اللصوص لعشت خارج هذا السجن ولكني لمحافظة على شرفي دخلت هنا لصا .. وهم في الخارج » .

لكن المأمور سرح طويلا . ولم يشأ أن يناقش الحادثة من ناحية إمكان وقوعها أو عدم إمكانه . لكنه انتهى جدا أن يرى صورة الرجل جيدا وهو يقرأ الخطاب .

واستدعاه . وقدم إليه الخطاب والصورة . فما كان منه إلا أنه أخذ يلثم الصورة ويهتف باسم ابنه ويكي بحنان يتناقض مع وجهه القاسي . وكانت الدموع في مثل هذه المرة أشد من الدموع التي سبقت ، وكان يقول من خلال صوته الباكي : « وأعيش حتى أرى هذا في الخارج يارب !؟ » .  
وأخذ أوراقه وانصرف ..

ودلت المعلومات على أنه كثير الانطواء والبكاء أما إذا اتصل  
بمن حوله فهو كثير الشجار . واشتدت شراسته . حتى قال  
المأمور على سبيل المزاح بينه وبين نفسه : « ربما كان المنصب  
الذى يشغله الآن هو السبب فى ذلك » .

\* \* \*

ومرت فترة من الوقت ، حضر إلى مكتب المأمور رجل يشكو  
من صاحب هذه الخطابات . فعادت إلى ذهن الرجل ذكريات  
دموعه ومنظره القاسى المهزوم . فصرف الشاكى واستدعى  
المشكو فى حقه .

مثل أمام المأمور وهو بادى الحزن وكان فى ظنه أنه سيسأله عن  
سبب الخلاف بينه وبين جاره . لكن المأمور قال له :

— اسمع يا عم سيد . لك عندى رسالة جاءت بالبريد اليوم  
ف فيها أخبار سارة لك . لكنى .. لن أسلمها لك حتى ترى صورة  
أبنائك ورسائلهم التى تسلمتها منى منذ مدة .

وحملق الرجل فى المأمور وحك ذقنه وهمس « جواب ؟! »  
— أى نعم !!

بدا عليه تفكير عميق ثم نطق :

— الحمد لله فقد كنت بانتظاره على نار .

هز المأمور رأسه فى استجابة ، وقال بركة :

— عظيم .. اتفقنا يا عم سيد .

وانصرف الرجل وما لبث أن عاد ومعه الصور والخطابات .



ووضع المأمور الصورتين جنبا لجنب وأمامه الصورة الثالثة ( وهى الأب ) وحاول بكل ما يملك من خبرة أن يلتقط ( الخط ) الذى يجمع بين هؤلاء الثلاثة والذى تضيفه الوراثة على الوجوه ثم .. تبسم فى وجه الرجل وأعطاه صوره وخطاباته وقال له :

— تفضل يا عم سيد . عد إلى مكانك .. شكرا .

فسأل الرجل فى لهفة :

— والخطاب الجديد ؟

حماق فيه قائلا ::

— ليس هناك خطاب .. إننى فقط أردت أن أرى صور أبنائك .

لم يبد على وجه الرجل شىء من خيبة الأمل . كان ذلك اليوم قاسيا تماما كصورته المألوفة عنه بين النزلاء . وحك ذقنه . وخرج بظهره من المكان دون أن تحملق عيناه بنظرة متمكنة فى أى شىء حوله . لكن حالة الرجل الصحية بدأت تسوء . وتحولت مشاكساته لكل من حوله إلى شكوى مبهمه من مرض باطنى . وعرف المأمور بخبر نقله إلى المستشفى فضم هذه الفكرة الجديدة إلى شىء كان يتوهمه فى هذا الإنسان . وكان يعرف تماما أن الذكريات والهواجس والحوادث تأخذ صورة مكبرة ألف مرة فى هذا المكان الذى يشرف عليه .. فى السجن .. حيث يسود السكون الخارجى والداخلى . ليس بالنسبة إلى المكان فقط لكن بالنسبة إلى كل إنسان يكتب عليه أن ينزل فيه .





ليس هناك خطابات تردد ، كأنما قنع  
من هنا بقدره ... وكذلك من هناك

السجية الإنسانية لن تظهر على حقيقتها . وحتى الأحلام  
ينحاول أصحابها أن يتحكموا فيها بالزيادة أو النقص أو المنع تبعا  
لما تجلبه من راحة للنفس الإنسانية المسكينة .

لذلك فقد اعتقد المأمور أن المرض الباطنى الذى حل  
بهذا الرجل ليس إلا تعبيرا جديدا عن شيئين .. إثارة الاهتمام ..  
وتخاذل القوى .. فى وقت واحد .

\* \* \*

ولم يلبث الرجل أن شفى من مرضه ولكن ليس شفاء تاما .  
وأخذ الزمن يدور وليس هناك خطابات ترد . كأنما قنع من هنا  
بقدره وشغل من هناك بقدره .

لكن حدث أن استدغى المأمور ذلك الرجل . جاء إليه  
يهزول . أحس أن شيئا غير عادى قد وقع . هو شيء سار على كل  
حال . هكذا يحدثه قلبه . كان لا يرى الأبواب فى الممرات  
ولا يحس أنه يهبط درجات سلم .. كان يطير .. ولأول مرة عرف  
الطيران بغير ريش . وحدثته نفسه فى الطريق بما يخيفه . فقد  
حذرته أن يكون هذا وهما . لكنه عاد فأقنع نفسه .. إنه فى صفاء  
روحى فى هذه الأيام .. أحلامه فضية .. وكل من حوله يقولون له :  
« ما لك تغيرت .. أخلاقك ساءت » ويضحكون ؛ لأنهم  
يقصدون أنها « تحسنت » .

وفوجئ الرجل بأن رأى المأمور بانتظاره خارج حجرتة .

واقفا وعلى وجهه شيء يوحى بالطمأنينة ، وخيل إلى النزيل أنه يرى على وجه المأمور صورة والده . خيل إليه أنه بعث من قبره . فقط لو لم يلبس حلة عسكرية .

— عندي خبر سار لك يا عم سيد .

وبلع الرجل ريقه :

— كل أنخبارك .. سارة .. يا .. سيدى !!

— تخمن !!

هز رأسه عاجزا عن أن يخمن شيئا ، فليس معه شيء يقامر به حتى التخمين .

قال المأمور :

— عجزت ؟!

— أى نعم !.

— ابنك وكيل النيابة وابنك طالب الثانوى ..

هتف الرجل فى جزع لا يوصف :

— ما لهم ؟!

— عندي .. فى المكتب .. بانتظارك ليروك !..

استند الرجل على أقرب حائط .. وأغمض عينيه . لكن المأمور أخذ من يده برفق ودخلا إلى حجرة المكتب .

\* \* \*

كان هناك سيدة تخطو إلى الأربعين ومعهما بنت فى الرابعة عشرة .. وقع نظر الرجل عليهما فهم أن يصرخ .. وعانقته بنته

وقبلته وسلمت عليه زوجته وهى تنثر الدمع فى منديل  
وتبادل الرجلان نظرة ليست طويلة لكن النزىل اعترف فيها  
بعقرية المأمور وإنسانيته .

\* \* \*

كانت زوجته قد قررت ألا تزوره لأنه — إن كان صادقاً أو كاذباً  
— قد اختلس غير محتاج . وكان اليسر بادياً عليها مع شىء عظيم  
من الكآبة . وكان أهله قد اتخذوا هذا القرار ونسوا ضعف الإنسان  
أو كوارث القدر ( على حد سواء ) ولم يكن للرجل أولاد بنون .  
ومن شدة حنينه إلى النهاية الصغرى التى يتمتع بها الإنسان  
والحيوان كان يسرق صور أبناء النزلاء ويكتب عليها الإهداء  
لنفسه . ويخرجها من السجن لتعود إليه بالبريد مرة ثانية على أنها  
من قلوب تحبه وتعطف عليه .

ولم يكن يظهر هذا لأحد إلا للمأمور .. خوف أن يرى أحد  
صورة ابنه المسروقة .. فكان إذا شعر أنه اشترى حناناً زائفاً وهو  
يعرف حقيقته انطوى وبكى أو خاصم وشاكس .  
وأخيراً مرض ..

وهكذا عرف المأمور ( ذلك الرجل الذى يحمل قلب إنسان )  
الطريق الذى تسلكه عادة قلوب الآباء ..

المرحلة النبوية



إنه لم ير هذا المكان منذ أكثر من خمسة عشر عاما . وعندما وقعت عليه عينه تواردت عليه الذكريات .. فهذه الحديقة ذات السور وعراجين الموز التي كثيرا ما تدلت على أسلاكه على مقربة من الطريق .. العين العابرة كانت تقول عندما تقع على هذا المنظر : « يا لها من جنة ! » لكنها في حقيقة أمرها لم تكن كذلك . وعندما تواردت عليه الذكريات أحس شيئا فشيئا أنه يعيشها من جديد . تجسدت أمامه صورة القصر الذي تظهر من خلال الأشجار بعض شرفاته والذي قضى فيه شطرا كبيرا من حياته .. شطرا لا يقل عن خمسة وثلاثين عاما ..

ها هو ذا يرى نفسه من جديد غلاما في العاشرة من العمر تختلى به أمه ذات ليلة في دارهم الصغيرة على حدود هذه القرية لتقول له وفي عينيها معنى غامض لم يدر هذا الصغير ليلتذ ماذا يكون . أخبرته أمه أنه من الغد يتحتم عليه أن ينقطع عن المدرسة ..

عندئذ خفق قلبه وسأل نفسه مع شهقة صغيرة يكتمها : « ولماذا يتحتم عليّ أن أنقطع عن المدرسة ؟ ! » وكانت أمه كذلك تنهد . أطرقت نحو الحصار الذي يجلسان عليه وسلت منه عودا أخذت تقضمه بأسنانها وهي تعاود الحديث :

— نعم يجب أن تنقطع عن المدرسة يا عطية .. لأنك ستلتحق بعمل سينفعك في يوم ما .. ستكون في خدمة الأوسطى عبد العال الطباخ منذ باكر لأن الصبي الذى كان في خدمته قد انقطعت أخباره .. ويقولون إنه غرق وربما يكون قد رحل عن القرية خفية .. المهم أن هذا الصبي قد انقطعت أخباره وقد وقع اختيار نعمات هانم عليك أنت لتحل محل هذا الغلام الذى رحل .. وأنت تعلم يا بنى أننى أعيش فى خدمة سكان هذا القصر من قديم ..

\* \* \*

وهكذا عاودته الذكريات وهو داخل إلى القرية بعد غيبة ما يزيد عن خمسة عشر عاما . وتذكر اليوم الذى قضاه فى المدرسة قبل أن ينقطع عنها .. نعم .. كانت الحصّة الأولى فيه حصّة حساب وكانت المسألة التى يحلونّها فى الفصل فى ذلك اليوم تدور حول نفقات مطبخ أحد الأغنياء . كان كل شيء كأنه فآل لحياته .. وكان رأس المسألة : « اشترى طباخ وصبيه سبعين رطلا من اللحم ... » ، وضحك عطية يومئذ وأخذ يحل المسألة ببساطة وإلى جواره أحد أبناء أغنياء القرية يهمس وهو يحل مرتبكا ويقول : « سبعين رطلا .. من اللحم .. » ولا يستطيع أن ينتقل من مكانه فى المسألة . وضحك عطية فى سره وهو ينتهى من الحل ويقول فى نفسه : « إنهم يأكلونه ولا يفهمون » وأودع كراسته الدرج بعد أن كتب على غلافها من الخلف كلمة بسيطة عبّر بها عن

شعوره : « مع السلامة » .

ومنذ ذلك اليوم غاب عن المدرسة . انتقل من الفصل إلى المطبخ في القصر حيث كانت أمه تعيش هناك كذلك .

\* \* \*

وهكذا عاودته الذكريات .. كان في هذه اللحظة لا يزال يسير بحذاء سور الحديقة . وكانت أزهار برية مختلفة الألوان منتشرة بين أوراق النبات الشائك الذي سلحت به أسوار الحديقة .. نعم .. وتذكر عطية كيف انتقل من الفصل إلى القبو .. فقد كان المطبخ في بדרوم عميق فيه عدة حجرات بعضها يفتح بمعرفة أصحاب القصر وبعضها يفتح بمعرفة الخدم .

ومن بين الحجرات التي كانت لا تفتح إلا بمعرفة أصحاب القصر حجرة كانت تستأثر بكل اهتمامه ولا يستطيع أن يسأل عنها أحد ؛ لأن عبد العال الطباخ كان رجلاً قاسى القلب ولعل السر في قسوة قلبه أنه لم يلق في عمله هناك إلا كل قسوة . وليس مرجع هذا إلى إحساسه الشخصي بل إلى أنه كثيراً ما يتناول طعامه مما يطبخه ثم يعود إلى بيته فيرى أولاده يأكلون أتفه الطعام . ولذلك كان يشعر بما يشبه تأنيب الضمير الدائم المستمر كأنه نحيب .. وعلى مرور الزمن أصبحت القسوة أساس طبيعه . لذلك فإنه كان يعامل صبيه عطية بكل شراسة . فهو إن أخطأ لسعه بسيخ ساخن أو رشّه بالماء أو لوّث ملابسه بالهباب أو قص من شعر رأسه خصلة بالمقص . ومرة من المرات اتهمه بسرقة قطعة

من اللحم . وكان لهذه الحادثة صدى فى نفس الغلام الذى كان  
يحتمل كل الأذى الجسمانى بشجاعة ولكنه لم يحتمل أن يتهم  
بمثل هذا . وظل طول ليله يبكى وأمه تكفكف دمه .

وهكذا عاودته الذكريات ، ولا يزال سور الحديقة إلى يمينه عليه  
أزهار برية ملونة منتورة فى النبات الشائك .. وسأل عطية نفسه  
قائلا : « ماذا كان وجه مستقبله لو أنه لم يحبس عن  
المدرسة ؟! » لا شك أنه شيء غير هذا . فهو اليوم طباط فى أحد  
مستشفيات الحكومة . يرى الأطباء وهم يقطعون الأبناء الطويلة فى  
مرايلهم البيضاء النظيفة كأوراق السوسن . وعطية كذلك يلبس  
مثل إحدى هذه المرايل . لكنه يرى الفرق كبيرا ويعتقد بينه وبين  
نفسه — وهو صادق — أنه لو لم يجبر على الانقطاع عن التعليم  
ليكون خادما كبقية أسرته فى هذا القصر — لربما كان اليوم يتخايل  
فى مريلة بيضاء من نوع آخر غير الذى يلبسه ! . وحقيقة كان  
جديرا بذلك . وقد بكى كل مدرسيه يوم قرأوا على ظهر كراساته  
كلمة « مع السلامة » كتبها بخط كبير كأنه كان يستثير فى  
قلوب الناس نوازع الدعوة إلى المساواة ، والعمل على اختراع ميزان  
جديد للإنسان .

وهكذا عاودته الذكريات . وقد كان الأوسطى عبد العال الطباط  
شرها فى أكله . خيل لعطية أيام كان معه فى القبر أن الرجل يأكل  
فوق ما يطيق . فكثيرا ما كان يأكل ثم يحس بالآلام المغص .. لعله  
كان يشعر أنه يأكل لنفسه ولأولاده . أما صبي الطباط فكان يلذ له



أن يراقبه وكانت مراقبته أهم عنده من تناول الطعام .. وأصبحت حياته شيئا شديدا الرتابة فهو لا يرى الشمس إلا منحدره من على الطريق إلى البدروم ولا يرى إلا أقدام بعض المارين ولا يرى إلا حجرات مقفلة من بعضها تفوح روائح يعرفها ومن بعضها تفوح روائح لا يعرفها وأخصها تلك الحجرة الغامضة التي لم يستطع أن يسأل الأوسطى عبد العال عن سرها .

وها هو ذا لا يزال يمشى إلى جوار سور الحديقة .. إنه طويل طويل مثل ليل الشتاء على الخائف . والذكريات تتوارد على رأسه . إنه لم ير هذا المكان منذ أكثر من خمسة عشر عاما . وهو الآن يذكر لماذا خرج من القرية .

كان ذلك في ليلة مضيئة . ليست مضيئة في القرية لأن هذه القرية لم تكن أيامها تعرف النور . بل كانت مضيئة في القصر . إذ كانت ربته تحتفل بأحد أعياد ميلادها . وتوافد على المكان الهادىء ناس كثيرون من المدينة أقارب وأصهار وأطفال وشباب . وأخذت الحقول الهادئة تشعر برجفة مثل رجفة القيامة حين تناثرت في ظلام تلك الليلة أضواء وضحكات وموسيقى وعطور . وربما همسات بحكايات عن الناس !! ..

وكان عطية يومئذ طبائحا شابا . وكان عمه عبد العال ومعلمه مريضا منذ أسابيع . يرقد في مستشفى المركز . ويرى الأطباء بمرايلهم البيضاء وهم يقطعون أبهاء المستشفى .





كان قلبه يقول له أشياء كثيرة إلا قلبي حدث ..

وقام بالعمل مكانه الطباخ الصغير .. عطية .. وكان شديد  
البهجة بما عمل ، فهذه وليمة ضخمة تحمل أعباءه . كربيان قاد  
السفينة وحده للمرة الأولى .

لكنه فى آخر تلك الليلة فوجئ بربة القصر تدعوه إليها وأخذ  
يخمن وهو يصعد السلم من القبر إليها . كان قلبه يقول له أشياء  
كثيرة إلا الذى حدث . فقد أخبرته أنها وجدت شيئاً تحت  
ضرسها وهى تأكل صنفاً من أصناف الحلوى . وقد كتبت الأمر  
حتى لا يشعر الضيوف . ولما قدمت إليه هذا الشيء لم يحر جواباً  
فقد كان خاتماً من المعدن الأبيض اعتاد عطية أن يحلى به يده  
اليمنى . ولم يدر كيف سقط منه . إنه كان واسعاً عليه نوعاً ما .  
ولعل جسمه كان قد نقص وزنه .. لكنه على كل حال قد سقط  
من يده فى وعاء الحلوى وهو على النار ..

ولم يحر عطية جواباً .. وقذفته به السيدة فى وجهه وطرذته  
فخرج من القصر فى ليلة مضيئة . ووجد الظلام يرقد على كل  
الكائنات فى القرية لا فرق بين الأفران والحظائر وحجرات النوم .  
وسار ليلئذ إلى جانب هذا السور الذى يراه الآن .. هذا السور  
نفسه .. الطويل .. الممتد .. المسلح بأشجار ذات أشواك فيها  
أزهار منشورة من كل لون .. ثم رحل إلى القاهرة حيث اشتغل طباخاً  
فى أحد المستشفيات وعاش يتشهى أن ينظر إلى مريضة الطبيب  
ويذكر تلك الكلمة التى كتبها على كراساته يوم ودّع المدرسة « مع  
السلامة » والتى قرأها مدرسه وشعروا يومها أن هذا التلميذ يطالب

الناس بأن يخترعوا للإنسان ميزانا جديدا ..  
وهكذا عاودته الذكريات .. وبات تلك الليلة فى القرية ، وفى  
الصباح خرج ليرى موطنه الجديد . الناس غير الناس . يتكلمون  
بطلاقة . لا أحد يخاف . ذلك لأن الكابوس الذى كان يسكن  
وراء الحديقة فى ذلك القصر ، الذى حرمه من المدرسة وخطفه  
ليعمل « مزْمَطون » ثم طبأخا .. ذلك الكابوس قد رحل ..  
مضى .. وولت أيامه .

وذهب إلى الحديقة ودخل من بابها .. كان هناك أيضا أطباء  
يرفلون فى المرايل البيضاء ويدخلون مسرعين ويخرجون مسرعين .  
وهناك مرضى يعالجون وأصحاء يخرجون .

ولذ له أن يدخل إلى حيث مكان ذكرياته الأولى حيث كان  
الأوسطى عيد العال وهو زوحيث بدأت قصة حياته ثم انتهت .  
حيث نخدم ثم سقط خاتمه وطرده فى ليلة شاتية .

وهبط سلم البدروم . ودخل ووقف فى سبيله رجل . لكنه  
ما لبث أن عرفه .. فقد كان من زملائه قديما . إنه يعمل أمينا  
لمخزن هذا القصر الذى حوّل إلى مستشفى . ودخل هو  
وزميله .. كانت روائح الأدوية تفوح فى المكان ، أما الحجرة التى  
كان لا يعرف سر ما فيها وهو صغير ثم عرفه وهو كبير فقد كانت  
مفتوحة .. وكانت مملوءة بالدقيق والسكر .. ووقف عطية يتلفت  
كأنه يبحث عن صورة أمه على أحد الجدران لكنه ما لبث أن أفاق



على يد تربت على كتفه ، ولما التفت إلى صاحبها وجدده عم عبد  
العال الطباخ وقد ملأ الشيب رأسه . لكن على وجهه بشاشة لم  
يكن يراها من قبل . وعانقه كما يعانق الأب ابنه والابن أباه . ولما  
انتهى عناقهما سأل عطية وهو يتسم عمه الطباخ القديم قائلاً :  
— وأنت هنا أيضاً ؟

فأجاب :

— نعم أنا طباخ فى المستشفى .

قال عطية :

— ولماذا كنت قاسياً على أيام زمان يا عم عبد العال ؟!

فأجاب الرجل :

— لأن الزمان كان قاسياً على الناس كلهم يا عطية .. عانقنى  
مرة أخرى .

رقم الإيداع ٧٨/٢٨٠٢

الترقيم الدولى ٠ - ٢٣٧ - ٣١٦ - ٩٧٧

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الإسكندرية







دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السبحار وشركاه